الفصل الثانى

تعدد زوجات الرسول ومبرراته وظروفه

قد يتساءل البعض عن سبب زواج الرسول ﷺ بأكثر من أربع ، وإذْ لم يجد المضللون أداة للتضليل أهم من الحديث عن تعدد زوجاته عليه الصلاة والسلام ، بدون نظرٍ عادل إلى الموقف برمته ؛ ليد رسوا مظاهر تعدد زوجاته فى ضوء الظروف المحيطة .

لقد كان لزواج الرسول ﷺ من كل واحدة من نسائه مبرراته الخاصة ، وظروفه الملجئة ، وإلاَّ فما باله ﷺ قد اكتفى بخديجة خمسًا وعشرين سنة فلم يتزوج عليها حتى ماتت وقد بلغ الخمسين من عمره ، وحين كانت الأحداث الكبار تشغل باله ، والجهاد فى سبيل الدين الجديد يملأ وقته .

أولاً : حياة الرسول ﷺ :

إن حياة الرسول ﷺ يمكن أن تنقسم من هذه الناحية إلى أربعة عهود ، وسنتعرض لكل عهد من هذه العهود .

(أ) حياته قبل الزواج (عهد العُزوبَة) :

عهد العزوبة هو أهم هذه العهود الأربعة ، فإلى الخامسة والعشرين من عمره كان يعيش عزبًا ، وكانت حياته ﷺ فى حالة العزوبة حياة طاهرة ، وهو أمر لم يكن مألوفًا فى بلاد كالجزيرة العربية التى يشتد فيها سلطان النزعات الجنسية من لحظة مبكرة فى حياة الفرد ، فمضت فترة الشباب برسول الله ﷺ وهو طاهر زكى : طاهر من الآثام التى تدنس الشباب فى مجتمعاتهم . وزكى لأنه بعيد عن الشرك ولم يسجد لصنم قط ، صلوات الله وسلامه عليه . وفى الصحيح أنه دُعى إلى مجتمع وليمة فيها عُرس ولعب ، فأصابه غشى النوم إلى أن طلعت الشمس ، ولم يحضر شيئًا من شأنهم ، وماذا عسى أن

تفعل مغريات مكة بقلب مهذب ، ونفس كلها تفكير وتأمل ؛ لذلك أقام بعيدًا عن النقص ، لا يجد لذة يذوقها أطيب لنفسه من لذة التفكير والتأمل ، كانت اللذة النفسية الكبرى لذة الاستمتاع بما فى الكون من جمال ، ومن دعوة إلى التأمل ، وظل طول حياته أشد الناس زهدًا ، فكان الزهد بعض طبعه ، وكان لا يحتاج من الحياة إلى أكثر مما يقيم صلبه ، صلوات الله وسلامه عليه ، وصدق ربُّ العزّة حيث يقول سبحانه : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ (١).

(ب) ظل زوجًا لزوجة واحدة إلى الخامسة والخمسين :

لقد ظل ﷺ منذ أول شبابه من الخامسة والعشرين إلى الخامسة والخمسين زوجًا لزوجة واحدة ، هى السيدة خديجة بنت خويلد ، رضى الله عنها .

نعم لقد تزوج الرسول الكريم فى الخامسة والعشرين من عمره من سيدة فى الأربعين من عمرها ، هى السيدة الطاهرة خديجة رضى الله عنها ، سيدة نساء قريش ، وقد كان يعمل فى مالها ، فعرفت فيه الأمانة والبركة ، فعرضت عليه نفسها لعُلو همته ، وسُمو خُلقه وصدقه .

وتجمع كتب السيرة على أن السيدة خديجة هى التى سعت إلى الزواج من الرسول ، وكانت هناك مقدمات ثلاث بدأت السيدة خديجة فى الأخذ بها للزواج من محمد ﷺ :

١ ـ فقد روى الفاكهى فى كتاب « مكة » كما روى الإمام ابن حجر قصة جاء فيها :

توجه النبى ﷺ إلى خديجة ، وما هو إلا أن سمعت به خديجة فخرجت إلى الباب ، وكان مِمَّا قالت : « أرجو أن تكون أنت النبى الذى سـتُبعث ، فإنْ تكنْ هو فَاعْرِفْ حقى ومنزلتى وادْعُ الإلٰه الذى يبعثك لى » .

فقال لها : « والله لئن كنتُ أنا هو ، فقد اصطنعت عندى مالا أُضيعه أبدًا ، وإن يكن غيرى فإن الإلٰه الذى تصنعين هذا لأجله لا يضيعك أبدًا » .

٢ ـ وحدثت نفيسة بنت منبه أن السيدة خديجة أرسلتها إلى محمد بعد أن رجعت عيرها من الشام ، فقالت له : يا محمد ما يمنعك من أن تتزوج ؟

---

(١) سورة القلم ـ الآية الرابعة .

قال : « ما بيدى ما أتزوج به » . فقالت : فإن كفيتُكَ ذلك ودُعِيَت إلى الجمال والمال والشرف والكفاءة ألا تجيب ؟

قال : فَمَنْ هى ؟ قالت خديجة . قال : وكيف لى ذلك ؟ قالت : علىَّ .

قال : فأنا أفعل .

فذهبت نفيسة بنت منبه وأخبرت خديجة بقول محمد ﷺ .

٣ ـ وقال السهيلى صاحب الروض الأنف :

لما أخبر ميسرة خديجة بما أخبرها به بعثت إلى رسول الله ﷺ فقالت له :

يا بن عم إنى قد رغبت فيك لقرابتك ، ووسطتك فى قومك ، وأمانتك ، وحسن خُلقك ، وصدق حديثك . . . ثم عرضت نفسها عليه .

وكانت خديجة يومئذ أوسط قريش نسبًا ، وأعظمهن شرفًا ، وأكثرهن مالاً ، كل قومها كان حريصًا على ذلك منها لو يقدر عليه .

وتم الاتفاق على كل شىء .

تزوجت« خديجة » قبل الرسول باثنين من سادات العرب وأشرافهم : أبى هالة بن زرارة التميمى ، وعتيق بن عائذ المخزومى ، فلما ذهب عمه أبو طالب قال فى الخطبة فى حفل الزواج : الحمد الله الذى جعلنا من ذرية إبراهيم ونسل إسماعيل ، وجعلنا ساسة بيته ، وسَدَنة حرمه ، أما بعد ، فإن ابن أخى هذا محمدًا الذى لا يوزن به فتى من قريش إلا وزنه ذكاءً وفطنة وأدبًا ، وأمانة وصدقًا ، وشرفًا ونبلا ، وهو إن كان فى المال قليل إلا أن المال ظل زائل ، وعارية مستردة ، وله فى خديجة بنت خويلد ولها فيه مثل ذلك ، فأثنى عليه عمها عمرو بن أسد ، وأنكحها منه على صداق قدره عشرون بقرة .

ولما انتهى العقد نُحرت الذبائح ، ودُقت الدفوف ، وفُتحت دار خديجة للأهل والأصدقاء ، فإذا بينهم « حليمة » قد جاءت من بادية بنى سعد لتشهد عرس ولدها الذى أرضعته ، ثم لتعود فى الغداة ومعها أربعون رأسًا من الغنم هبة من العروس الكريمة لتلك التى أرضعت محمدًا زوجها الحبيب ، وقد كان عند العرب فى الجزيرة العربية بقية من الحنيفيين الذين هم على دين إبراهيم عليه السلام وابنه إسماعيل ،

وجمهرة العرب كانت تؤمن بالله وبالبعث وبالحساب ، وكان معروفًا عندهم قبل الإسلام الزواج الشرعى القائم على العقد والشهود والمهر وهو الذى استبقاه الإسلام . لذلك فزواج النبى ﷺ من خديجة تم بعقد مشروع على أساس دين إبراهيم عليه السلام .

ولما عاد الرسول ﷺ إلى بيته بعد نزول الوحى لأول مرة ضمته الزوجة الوفية السيدة خديجة إلى صدرها ، وهتفت فى ثقة ويقين : الله يرعانا يا أبا القاسم : أَبْشِرْ يا بْنَ عَمٍّ وَاثْبُتْ، فوالذى نفس خديجة بيده إنى لأرجو أن تكون نبىَّ هذه الأمة ، والله لا يخزيك الله أبدًا ، إنك لتصل الرحم ، وتصدق الحديث ، وتحمل الكَلَّ ، وتقرى الضيف ، وتعين على نوائب الحق .

ولما نزل قوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝ قُمْ فَأَنذِرْ ۝ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ۝ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ۝ وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ ﴾ (١) قال الرسول الكريم : « انتهى يا خديجة عهد النوم والراحة ، فقد أمرنى جبريل أن أنذر الناس ، وأن أدعوهم إلى الله وإلى عبادته ، فمن ذا أدعو ؟ ومن ذا يستجيب ؟ » فسارعت بالإيمان به رسولا وبرسالته دينًا وشريعة قائلة : « أنا أستجيب يا محمد ، فادعُنى قبل أن تدعو أى إنسان ، وإنى لمسلمة لك ، مصدقة برسالتك ، مؤمنة بربك » .

شاركته فى قسوة جهاده المرير فى سبيل الدعوة ، فلما قُضِىَ على بنى هاشم وعبد المطلب أن يخرجوا من مكة لائذين بشعب أبى طالب ، بعد أن أعلنت قريش حربًا لاترحم لم تتردد خديجة فى الخروج مع زوجها ، وتخلت عن دارها وأقامت فى شعب أبى طالب ثلاث سنوات ، تذوق مع الرسول ومن تبعه من قومه أهوال الحصار المنهك ، وبعد أن فشل الحصار أمام ذلك الإيمان الراسخ عادت خديجة رضى الله عنها مع الرسول ﷺ إلى بيته فى مكة ، وكان قد نال منها الإعياء ، فرقدت هنالك ثلاثة أيام ، ثم أسلمت الروح وقد تجاوزت الخامسة والستين ، وصلوات الله وسلامه عليه فوق الخمسين ، وقبل الهجرة بثلاث سنوات ، وبلغت متاعب الرسول الكريم أقسى مداها فى عام موت خديجة الذى سُمِّىَ عام الحزن .

---

(١) سورة المدثر ـ الآيات من ١ ـ ٧ .

والذى يتجلى من كل هذا أن الجزء الأهم من حياته ﷺ من الخامسة والعشرين إلى الخامسه والخمسين ، ثلاثون عامًا قضاها الرسول بدون أن يعدد الزوجات ، برغم أن التعدد كان مألوفًا بين العرب ، معروفًا فى ديانة أبى الأنبياء إبراهيم عليه السلام .

غير أنه ﷺ ظل مكتفيًا بمن استراح إليها واطمأن بصحبتها ، فكان محمد بالنسبة لخديجة الأخ والابن والزوج ، وكانت خديجة بالنسبة لمحمد الأخت والابنة والزوجة .

ورزقه الله تعالى منها بجميع أولاده ، إلا إبراهيم ، فكان من مارية القبطية المصرية ، وأولاده هم : القاسم ، وعبدالله ، وكان يلقب عبدالله بالطيب أو الطاهر ، وزينب ، ورقية ، وأم كلثوم ، وفاطمة ، وكلهم ماتوا فى حياته ، إلا فاطمة ، ماتت بعد الرسول بشهور قليلة ، حيث كانت أول أهله لحوقًا به ﷺ .

وعاش الرسول ﷺ مع السيدة خديجة رضى الله عنها الطاهرة ، سيدة نساء قريش ، عيشة تعد مثلاً أعلى فى وفاء الزوج لزوجته .

وقد ظل الرسول ﷺ وفيًا لخديجة رضى الله عنها بعد موتها ، يذكرها من حين لآخر ذكر الزوج الوفى للعهد ، وحتى يوم الفتح ، وقد مضى على وفاة خديجة أكثر من عشر سنوات حافلة بأجل الأحداث ، نرى الرسول يختار مكانًا إلى جوار القبر الذى ثَوَتْ فيه خديجة ليقيم فى قبة ضُرِبَتْ له هناك تؤنسه روح خديجة وهو يشرف على فتح مكة ، تلك هى المسلمة الأولى التى انفردت بلقب سيدة النساء والتى كتب عنها المستشرق الألمانى در منجم يقول : « فقد محمد بوفاة خديجة تلك التى كانت أول مَنْ عَلِمَ أمره وصدقته . تلك التى لم تكف عن إلقاء السكينة فى قلبه . . تلك التى ظلت ـ ما عاشت ـ تشمله بحب الزوجات وحنان الأمهات . . » لقد كانت رضى الله عنها ملء حياة الرسول حية وميتة .

(ج) عهد تعدد زوجاته :

ومن الخامسة والخمسين إلى الستين تعددت زوجاته ﷺ ، ولكنهن لم يتجاوزن التسع ، وكن كلهن أرامل ، ماعدا السيدة عائشة رضى الله عنها ، والسيدة زينب بنت جحش رضى الله عنها .

ولم يتجاوز عهد تعدد زوجاته ست سنوات .

ويجب أن نكون على بينة من طبيعة هذا العهد الثالث من حياته الزوجية ، فقد كان

عهد حروب متتالية سقط فيها كثيرون من أرباب البيوت قتلى فى ميدان القتال ، تاركين وراءهم أزواجهم وأولادهم بدون معين ، وقد استمر هذا العهد من السنة الثانية إلى السنة الثامنة من الهجرة .

وهذا هو العهد الذى عقد فيه الرسول على زوجاته الأخريات وهن :

١ـ أم المؤمنين السيدةسودة بنت زمعة بن قيس :

لما انتهت أيام الحداد على السيدة خديجة رضى الله عنها ، أم الأولاد ، وربة البيت ، والشريكة فى الجهاد ، اقترحت خولة بنت حكيم السلمية على الرسول أن يخطب سودة بنت زمعة بن قيس بن عبد شمس القرشية العامرية ، وأمها الشموس بنت قيس بن زيد ، من بنى عدى بن النجار . جاءت سودة إلى بيت الرسول جبرًا لخاطرها ، وعزاءً لها عن زوجها وابن عمها السكران بن عمرو بن عبد شمس ، من بنى عامر بن لؤى ، الذى هاجر فيمن هاجر ضمن أسرة مؤمنة برجالها ونسائها من نفر ثمانية من بنى عامر إلى الحبشة ، وصحب ثلاثة من الثمانية زوجاتهم ، من هؤلاء سودة بنت زمعة ، وما إن عادت وزوجها من الغربة إلى أم القرى حتى فاضت روحه وتركها أرملة مسنة ، وقد طحنتها السنون الطوال العجاف ، وليس لها من مأوى سوى بيت أبيها المشرك . تأثر ﷺ للمهاجرة المؤمنة المترملة أيما تأثر ، فمد يده الرحيمة إليها يسند شيخوختها ، ويهون عليها الذى ذاقت من نكد الحياة . وعرفت سودة من اللحظة الأولى أن حظها من الرسول بر ورحمة لاحب وتآلف وامتزاج ، ووفدت على بيت الرسول زوجات أخريات ، وكان الرسول يعدل بينها وبين نسائه من مبيت ونفقة ويقول :

« اللهم هذا قسمى فيما أملك فلاتؤاخذنى فيما تملك ولا أملك » هذا قسمى : أى : بالعدل ، فيما أملك أى : من التصرفات ، وكره لها الرسول قسوة الشعور بأنها ليست مثل الأخريات ، وأشفق عليها صلوات الله وسلامه عليه من الحرمان العاطفى ، وبدا له أن يسرحها سراحًا جميلاً فأنبأها بعزمه على طلاقها ، فهمست فى توسل : «أَمْسِكْنِى ، والله مالى على الأزواج من حرص ، ولكنى أحب أن يبعثنى الله يوم القيامة زوجًا للرسول » . وأحسَّت بحبه ﷺ لعائشة فقالت : « أَبْقنى يا رسول الله وأهب ليلتى لعائشة » .

وتأثر الرسول ﷺ بهذه العاطفة الفياضة ، وذاك الحب السمح الكريم ، وعاشت سودة راضية مطمئنة ، شاكرة لله أن جعلها زوجًا للرسول الكريم ﷺ . رحم الله أم المؤمنين سودة بنت زمعة ، ورضى الله عنها .

٢ـ أم المؤمنين السيدة عائشة بنت أبى بكر :

عندما عقد الرسول ﷺ على زوجاته الأخريات كان الباعث الأول هو ارتباط الرسول بالرجال الذين آزروه فى دعوته ، وعاونوه فى رسالته ، فاختار عائشة بنت أبى بكر ، وكانت هى الزوجة الوحيدة التى تزوجها الرسول بكرًا . ذهبت خولة بنت حكيم إلى بيت أبى بكر وقالت : ماذا أدخل الله عليكم من الخير والبركة : أرسلنى رسول الله أخطب له عائشة .

فقال أبو بكر لخولة : ادعى لى رسول الله ، فجاء الرسول إلى بيت صديقه أبى بكر ، فأنكحه عائشة ، وهى يومئذ بنت سبع سنين ، وكان صداقها خمسمائة درهم .

تزوجها الرسول إكرامًا لأبيها أول المؤمنين به ، وأصدقهم صحبة له ، فلقد كان أبو بكر سابقًا إلى الإسلام ، مناضلاً عنه بكل ما يملك ، داعيًا إليه فى شجاعة وحماس ، وكان ممن أسلم من الصحابة بفضل أبى بكر واستجابة لدعوته عثمان بن عفان ، والزبير بن العوام ، وعبد الرحمٰن بن عوف ، وسعد بن أبى وقاص ، وطلحة بن عبيد الله . قال عنه الرسول ﷺ : « ما دعوت أحدًا إلى الإسلام إلا كانت فيه عنده كبوة ونظر وتردد ، إلاَّ ما كان من أبى بكر بن أبى قحافة ، ما عكم ـ أى ما تلبث ـ حين ذكرته له وما تردد فيه » .

ولدت عائشة بمكة فى الإسلام بعد أربع سنين من المبعث ، فكانت مسلمة بالبنوة لأب مسلم ، كما أسلمت قبل أن تشب عن الطوق هى وأختها أسماء ، والمسلمون إذ ذاك قلة معدودة ، وبلغ من إعزاز الرسول لها أن كان يوصى بها أمها قائلا : « يا أم رومان ، استوصى بعائشة خيرًا واحفظينى فيها » وبعد الهجرة بأيام جاء زيد بن حارثة من المدينة ليصحب بنات الرسول إلى المدينة ومعه رسالة من أبى بكر إلى ابنه عبدالله يطلب إليه فيها أن يلحق به مصطحبًا زوجته أم رومان وابنتيه أسماء وعائشة . وإذ تم بناء مسجدالرسول ومن حوله بيته تسع حجرات بعد الهجرة بأشهر معدودات ، تحدث

أبو بكر إلى الرسول ﷺ فى إتمام الزواج الذى عقد بمكة منذ ثلاث سنين ، فلبى الرسول راضيًا ، وانتقلت عائشة إلى بيتها الجديد ، وهو حجرة من الحجرات التى شُيدت حول المسجد بعد أن بنى بها الرسول فى بيت أبيها .

وبعد عودة الرسول من حجة الوداع بدأ يحس ألم المرض ، وكان يطوف بزوجاته حتى إذا وصل فى طوافه بيت ميمونة وقد اشتد عليه المرض نظر إلى زوجاته وقد تجمعن حوله وقال : أين أنا غدًا؟ أين أنا بعد غد ؟ وأدركت نساؤه على الفور تطلعه إلى يوم عائشة ، فقلن جميعًا : يا رسول الله قد وهبنا أيامنا لعائشة . سهرت عليه السيدة عائشة تمرضه حتى إذا شخص بصره ﷺ وهو يقول : « بل الرفيق الأعلى من الجنة » فقالت : «خُيِّرْتَ فاخْتَرْتَ ، والذى بعثك بالحق » وقُبِضَ رسول الله ﷺ وهو فى حجرها ، وعمرها ثمانية عشر عامًا وعاشت بعد الرسول ﷺ ثمانية وأربعين عامًا لتكون المرجع الأول فى الحديث والسنة ، وليأخذ المسلمون عنها نصف دينهم . وماتت وهى فى السادسة والستين من عمرها فى رمضان عام ثمانية وخمسين وصلى عليها أبو هريرة رضى الله عنه ، وشُيِّعَتْ جنازتها فى غسق الليل كما أوصت ـ إلى البقيع ، وأودع جثمانها مع أمهات المؤمنين ، بعد أن تركت أعمق الآثار فى حياة المسلمين طوال الأعوام التى عاشتها . رحم الله أم المؤمنين عائشة .

٣ـ أم المؤمنين حفصة بنت عمر بن الخطاب (حافظة المصحف الشريف) :

اختار الرسول ﷺ حفصة بنت عمر على قِلَّةِ وسامتها .

مات عنها زوجها « حصن بن حذافة السهمى » وكان من أصحاب النبى ﷺ فتزوجها الرسول عليه الصلاة والسلام إكرامًا لأبيها ، فعمر يلى أبا بكر فى مكانته عند الرسول وغيرته على الإسلام وتأييده له .

ولزواج الرسول من حفصة قصة طريفةنلخصها فيما يلى :

فى يوم من أيام شهر ربيع فى العام الثالث من الهجرة أوى الرسول إلى بيته ليستريح ، فإذا عمر بن الخطاب يسعى إلى الرسول غاضبًا ليشكو إليه صاحبيه أبا بكر وعثمان ، لقد عَرَض على أحدهما بعد الآخر أن يتزوج من بنته حفصة بعد أن مات عنها زوجها «حصن بن حذافة » فسكت أبو بكر ، وأجاب عثمان : ما أريد أن أتزوج اليوم .

فقال الرسول ﷺ لعمر ملاطفًا :

« يتزوج حَفْصَةَ مَنْ هو خيرٌ من عثمان ، ويتزوج عثمان مَنْ هى خير من حفصة » .

فكان أن تزوج الرسول ﷺ حفصة بنت عمر .

وتزوج عثمان بن عفان رضى الله عنه أم كلثوم بنت محمد ﷺ لتشغل مكان أختها رقية بعد وفاتها ـ فى بيت عثمان .

ويروى البخارى فى صحيحه :

أنه لما لقى أبو بكر عمر قال له :

لَعَلَّكَ وَجَدْتَ (أى :غَضِبْتَ)عَلَيَّ حين عرضت علىَّ حفصةَ فلم أرجع إليك شيئًا .

قال عمر : نعم . قال أبو بكر :

« إنه لم يمنعنى أن أرجع إليك فيما عرضتَ علىَّ إلاَّ أنى كنتُ قد علمتُ أن رسول الله ﷺ قد ذَكَرَهَا ، فلم أكن لأفْشِىَ سر رسول الله ﷺ ، ولو تركها الرسول قَبِلْتُها » .

وكان زواج الرسول بحفصة بعد الهجرة بسنتين وأشهر [1].

وكان عمر يحذر ابنته فى مسايرة عائشة فى التآمر على زوجات النبى ، وليس لها مثل حظها من حب الرسول ولا مكانتها من قلبه قائلا لحفصة : « أين أنت من عائشة ؟ وأين أبوك من أبيها ؟ وحين سمع أن ابنته تراجع الرسول حتى يظل يومه غضبان صاح يزجرها : « تعلمين أنى أحذرك عقوبة الله وغضب رسوله . يا بنية لا يغرنَّك هذه التى أعجبها حُسْنُها وحُبُّ رسول الله ﷺ لها ، لقد علمتِ أن الرسول لا يحبك ، ولولا أنا لطلقك » .

ولما انتقل ﷺ إلى جوار ربه الأعلى كانت حفصة هى التى اختيرت من أمهات المؤمنين جميعًا ـ وفيهن عائشة ـ لتحفظ النسخة الخطية للقرآن الكريم ، فقد استجاب أبو بكر الصديق خليفة رسول الله لنصيحة عمر بأن يجمع ما تفرق من القرآن الكريم

---

(١) التاج ـ ج٢ .

قبل أن يمضى حَفظَتُهُ الأولون وبقى المصحف لديها فى مأمن حتى أخذه عثمان بن عفان وهو أمير المؤمنين ، فنسخ منه النسخ الأربع التى وُزِّعَتْ على الأمصار ، وأَمَر بإحراق ماعداها . وعاشت حفصة صوامة قوامة حتى ماتت فى السنين الأولى من عهد معاوية.

٤ ـ أم المؤمنين زينب بنت خزيمة (أم المساكين الأنصارية) :

لم يكن قد مضى على مجيء حفصة إلى دور النبى ﷺ غير وقت قصير حين وفدت زوجة رابعة ، هى أم المؤمنين زينب بنت خزيمة بن الحارث بن عبد الله بن عمر بن عبد مناف بن هلال ، أرملة شهيد عزيز من شهداء أُحُد ، قيل : هو عبدالله بن جحش الأسدى، ابن عمة الرسول ، وأخو زينب بنت جحش ، وقيل : هو عبيدة بن الحارث ابن عبد المطلب بن عبد مناف ، فخطبها الرسول إلى نفسها ، فجعلت أمرها إليه ، فتزوجها فى السنة الثالثة للهجرة ، ولم تلبث عند الرسول إلا قرابة أربعة أشهر ثم توفيت فى الثلاثين من عمرها ، فكانت بعد السيدة خديجة الوحيدة من أزواج النبى التى توفيت قبله ﷺ . واشتهرت بأم المساكين لرحمتها إياهم ورقتها عليهم ، فكانت تطعمهم وتتصدق عليهم ، وتأوى اليتامى والضعفاء ، فكافأها النبى على حنانها ورحمتها وعطفها نالزواج منها ، وتوفيت قبل زواجه ﷺ من صفية بنت حُيَى .

٥ ـ أم المؤمنين أم سَلَمة (هند بنت أبى أمية) :

أم سلمة هي هند بنت أبى أمية بن المغيرة المخزومى ، زاد الركب ، القرشية المخزومية ، أرملة الصحابى الفارس عبدالله بن عبد الأسد بن المغيرة ، ابن عمة الرسول برة بنت عبد المطلب بن هاشم ، وأخو الرسول من الرضاعة ، أرضعتهما ثُويبة مولاة أبى لهب ، كانت هى وزوجها قد سارعا معًا للإسلام منذ بدء الدعوة إليه فى مكة ، وتعرضا للأذى والبلاء فى سبيل الله ، ولما أذن الرسول ﷺللمضطهدين بالهجرة إلى الحبشة فرارًا بدينهم ، هاجرت هند مع زوجها ، وكانت أول مهاجرة فى الإسلام .

وفى الحبشة ولدت ابنها سَلمة ، وعادت وزوجها إلى مكة ، فوجدت قريشًا وقد زاد اضطهادها وبطشها للمسلمين فهاجر زوجها إلى المدينة ، ولكنها حُبِسَت بعد زوجها

سنة وحيل بينهما وبين ولدها ، ثم خرجت بعد ذلك هى وولدها إلى المدينة ، حيث كانت أيضًا أول مهاجرة إلى المدينة .

وقفت أم سلمة بجوار زوجها لنصرة الإسلام ، حيث شهد غزوة بدر الكبرى ، وغزوة أحد ، حيث أُصيب بجرح خطير ، ثم عقد له الرسول لواء سرية بها مائة وخمسون رجلا ، منهم أبو عبيدة بن الجراح ، وسعد بن أبى وقاص ، وقاد معركة ظافرة، ثم رجع وصحبه إلى المدينة غانمين .

حضره النبى ﷺوهو على فراش موته ، وبقى إلى جانبه يدعو له بخير حتى مات ، فأسبل بيده الكريمة عينيه ، وكَبَّرَ عليه تسع تكبيرات ، فقيل له : يا رسول الله ، أَسَهَوْتَ أم نَسِيتَ ؟ فأجاب : لم أَسْهُ ولم أَنْسَ ولو كبرت على أبى سلمة ألفًا لكانَ أهلاً لذلك . ومات أبو سلمة وتَرَكَ لها سلمة ، وعُمَرَ ووردة ، وزينب ، وتألمت لموت زوجها ألمًا شديدًا ، فقال لها الرسول : « يا أم سلمة اتقى الله واصبرى يعوضك الله خيرًا» .

فقالت : وهل يعوضنى خيرًا من أبى سلمة .

تقدم إليها أبو بكر وعمر فاعتذرت .

وتقدم لها الرسول ﷺ تقديرًا لمعاناتها وكفاحها فى سبيل الإسلام ، ورعاية لصغارها، وحماية لضعفها ، فقالت للرسول :

إنى غَيْرَى ومُسِنَّةٌ ، وذات أولاد ، وأخشى ألا أسد مكانى فى بيت النبوة .

فقال لها الرسول : « أما أنك مُسنة فأنا أكبر منك ، وأما الغيرة فَيُذْهِبُهَا الله عنك ، وأما العيال فإلى الله ورسوله » وتم الزواج ، وأصبحت من أمهات المؤمنين .

وكان الوحى يتنزل على رسول الله فى بيت عائشة ، فتباهى بذلك ضرائرها ، حتى جاءت أم سلمة بنت زاد الركب ، فأوحى إلى الرسول وهو لديها قوله تعالى : ﴿وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (١) .

(١) سورة التوبة ـ الآية ١٠٢ .

إنها توبة أبى لبابة بن عبد المنذر ، الذى أرسله الرسول إلى يهود بنى قريظة بعد حصار الرسول لهم فاستشاروه فى أمرهم ، فسألوه : يا أبا لبابة ، أترى أن ننزل على حكم محمد ؟ فأجاب : نعم إنه الذبح ، وأشار إلى حلقه . فمازالت قدماه من مكانها حتى عرف أنه خان الله ورسوله ، فربط نفسه بجذع المسجد حتى يتوب الله عليه مما صنع، فكانت امرأته تأتيه فى كل وقت صلاة فتحله للصلاة ثم يعود فيربط بالجذع حتى نزلت توبة أبى لبابة على رسول الله ﷺ فأطلقه رسول الله .

وفى السنة السادسة للهجرة ، صحبت أم سلمة زوجها الرسول فى رحلته إلى مكة ، حيث صَدَّتْ قريش الرسول وأتباعه من دخول البلد الحرام وتم عهد الحديبية ، وتذَمَّرَ أصحابُ الرسول ﷺ من نص العهد ، واستفحل الأمر إلى حد خطير ، حتى أن الرسول أمرهم أن يقوموا فينحروا ثم يحلقوا ، فما استجاب منهم أحد ، وأخذ الرسول بمشورة أم سلمة ، فخرج فلم يكلم أحدًا منهم كلمة حتى نحر بُدْنَهُ ، وحلق ، فلما رأوا ذلك قاموا فنحروا وجعل بعضهم يحلق بعضًا ، حتى كاد بعضهم يقتل بعضًا غمًا وندمًا .

وصحبت أم سلمة الرسول كذلك فى خروجه لفتح مكة ثم فى حصاره الطائف ، وغزو هوزان وثقيف . وفى الفتنة الكبرى جاءت أم سلمة إلى على بن أبى طالب كرم الله وجهه وقدمت إليه ابنها عمر قائلة : « يا أمير المؤمنين لولا أن أعصى الله عز وجل وإنك لا تقبله منى لخرجت معك ، وهذا ابنى عمر ، والله لهو أعز علىَّ من نفسى ، يخرج معك فيشهد مشاهدك » ثم مضت إلى أم المؤمنين عائشة فقالت لها فى عنف وأنكار : « أى خروج هذا الذى تخرجين ؟ الله من وراء هذه الأمة لو سرتُ مسيرك هذا ثم قيل لى ادخلى الفردوس لاستحييت أن ألقى محمدًا هاتكة حجابًا قد ضربه على » . وماتت أم سلمة بعد أن رُوعت بمذبحة أهل بيت الرسول بكربلاء ، بعد ماجاءها نعى الإمام الحسين بن على سنة إحدى وستين ، وشيع المسلمون أم سلمة آخر من مات من زوجات الرسول أمهات المؤمنين ، ودفنت بالبقيع بالمدينةالمنورة ، وصلى عليها أبو هريرة رضى الله عنهما .

٦ـ أم المؤمنين زينب بنت جحش :

لم يَمْضِ على زواج الرسول ﷺ من أم سلمة بضعة أشهر حتى تزوج بابنة عمته زينب بنت جحش ، حفيدة عبد المطلب .

وكان زواجه ﷺ بزينب بنت جحش امتحانًا قاسيًا لرسول الله ، أمره الله بهذا الزواج لإبطال تقليد شائع عند العرب ، وهو نظام التَّبَنِّى .

وأقدم عليه الرسول وهو شديد الحرج والحياء .

وزينب بنت جحش القرشية الهاشمية بنت عمة رسول الله ﷺ ، أميمة بنت عبد المطلب ، وقد رغب الرسول فى أن يزوجها من مولاه زيد بن حارثة ، فكرهت ذلك ، ورفض أخوها اعتزازًا بما لأسرة زينب من مكانة ، فهى من ذؤابة قريش ، وزيد عبد.

وحقيقة الأمر ماكان زيد عبدًا ، وإنما هو زيد بن حارثة بن شرا حيل بن كعب ، من بنى زيد ، خرجت به أمه سعدى بنت ثعلبة لُتزِيرَه أهلها بنى معن بن طيىء ، فأصابته خيل من بنى القين بن جسر ، فباعوه بسوق من أسواق العرب ، فاشتراه حكيم بن حزام بن خويلد وأهداه إلى عمته السيدة خديجة بنت خويلد التى وهبته للرسول ﷺ . جاء أبو زيد وعمه كعب فقالا للرسول :

« يا بن سيد قومه أنتم جيران بيت الله ، تفكون العانى، وتُطعمون الجائع ، وقد جئناك فى ابننا فتحسن إلينا فى فدائه ، فقال الرسول : « أدعوه وأُخَيِّرُه فإن اختاركما فذاكَ ، وإن اختارنى فوالله ما أنا بالذى أختار عَلى مَنِ اختارنى أحدًا » . وخيره الرسول، فاختار سيده . . وتوسَّل إليه أبوه قائلا : « يا زيد ، أتختار العبودية على أبيك وأمك وبلدك وقومك ؟ » فقال : « إنى قد رأيتُ من هذا الرجل شيئًا ، وما أنا بالذى أفارقه أبدًا » . فبعد ذلك أخذ الرسول بيده وقام به إلى الملأ من قريش ، فأشهدهم أن زيدًا ابنه وارثًا وموروثًا ، ودُعِىَ زيد بن محمد ، وكان أول من أسلم بعد على بن أبى طالب .

وروى ابن كثير فى التفسير قال : (قال العوفى ، عن ابن عباس رضى الله عنهما : انطلقَ رسولُ الله ﷺ يخطب على فتاه زيد بن حارثة ، فدخل على زينب بنت جحش

الأسدية فخطبها ، فقالت : لستُ بناكحته ، أنا خير منه حسبًا . فقال رسول الله ﷺ : « بلى فانكحيه » .

قالت : « يا رسول الله : أؤامر فى نفسى ؟ » . فبينما هما يتحدثان إذ أنزل الله هذه الآية على رسول الله ﷺ : ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴾[1] .

فقالت زينب : قد رضيته لى يا رسول الله مُنكِحًا ؟ .

قال رسول الله ﷺ : نعم .

قالت : إذن لا أعصى رسول الله ﷺ : قد أنكحته نفسى .

وانصاعت زينب لأمر النبى الذى أراد أن يحطم الاعتزاز بالأنساب ، وأن يُنكح مولاه زيدًا زينب شريفة بنى هاشم ، وزينة الهاشميات ، فرضيت وفى نفسها غضاضة ، وقَبِلَ أخوها عبد الله بن جحش وهو يؤدى حق السمع والطاعة بعد ما نزل قوله تعالى :

﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴾[1]

وتزوج زيد بزينب ، ولكنها لم تستطع أن تتجاوب معه بعواطفها وقلبها ، ولم تستطع أن تؤدى واجبها نحو زوجها ، وقَاسَى زيد من صدها وإبائها وترفُّعها ، وشكا إلى الرسول ما يجد من سوء معاملة زينب ، والرسول يطلب إليه مزيدًا من الصبر والاحتمال ، ويأمره أنْ ﴿ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ ﴾ .

وأتى زيد رسول الله يواصل شكواه منها ، ويطلب من الرسول أن يفارقها ، فقال له الرسول : « أرابَكَ منها شىء ؟ » فأجاب زيد : « لا والله يا رسول الله مارابنى منها شىء ، ولا رأيتُ إلا خيرًا ، ولكنها تعظم عَلَىَّ لشرفها ، وتؤذينى » . والرسول يقول

---

(١) سورة الأحزاب ـ الآية : ٣٦ .

له : « أمسك عليك زوجك » حتى نفد احتماله ، وقرر زيد ألاَّ يبقى معها . والرسول يتدخل مُحاولاً الصلاح ، ولكن بدون جدوى ، وهنا أوحى الله لنبيه أن زيدًا سيطلق زينب ، وأنه سيتزوجها للحكمة التى قَضَى الله بها منه ، فاعترى الرسول هَمٌّ شديد لهذا الأمر الغريب ، وأخفاه فى نفسه ، فسيقول الناس تزوج امرأة ابنه وهى لا تحل له . لكن هذا الذى سيقوله الناس هو ما أراد الله هَدْمَه ، وليكن عمل الرسول بنفسه أول ما يهدم نظام التبنى . يقول تعالى : ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ﴾ (١) وكان الطلاق ، وأحسَّ الرسول ﷺ عطفًا غلابًا على الشابة التى أُكْرِهَتْ على الزواج ممن لا ترضى ، إذعانًا لأمر الله ورسوله ، وود لو يستطيع أن يجبر خاطرها المكسور ويتزوجها ، ولكن كيف يتزوج ممن كانت زوجة ابنه ؟ وبينما هو - ﷺ - يتحدث مع عائشة إذْ أخذته غشية الوحى ، ونزل قوله تعالى :

﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ ۖ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴾ (٢) .

ثم سُرِّىَ عنه وهو يبتسم ويقول : « مَنْ يذهب إلى زينبَ يبشرها بأن الله زَوَّجنِيها؟ »

﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا ﴾ : أى حاجة وأربًا ، ولم يبقَ له رغبة فيها ، ولا ميل إليها ، طلقها راغبًا مختارًا . فلما انقضت عِدَّتُها ﴿ زَوَّجْنَٰكَهَا ﴾ : بلا ولىٍّ ، ولا عقد ، ولا مهر ، ولا شهُود من البشر . خصوصية له ﷺ ، وتشريفًا له ولها .

أرسل الرسولُ إليها زيدًا زوجها السابق ، وأحب خلق الله إليه ، أرسله إليها ليخطبها عليه .

---

(١) سورة الأحزاب - من الآية ٤٠ .

(٢) سورة الأحزاب - الآية ٣٧ .

وعن أنس رضى الله عنه قال :

« لما انقضت عدة زينب رضى الله عنها قال رسول الله ﷺ لزيد بن حارثة :

اذهب فاذكرها عَلَىَّ قال : فانطلق زيد حتى أتاها وهى تخمر عجينها .

قال زيد : فلما رأيتها عَظُمَتْ فى صدرى ، حتى ما أستطيع أن أنظر إليها وأقول إن رسول الله ﷺ ذكرها ، فوليتها ظهرى ونكصت على عقبى [1] وقلت :

« يا زينب ، أبشرِي ، أرسلنى رسول الله ﷺ يذكرك » قالت : ما أنا بصانعة شيئًا حتى أؤامر ربى » فقامت إلى مسجدها [2] .

ونزل القرآن ، وجاء رسول الله ﷺ فدخل عليها بغير إذن [3] قال : فقال : ولقد أَطْعَمَنَا رسول الله ﷺ الخُبزَ واللحم حتى امتد النهار ، فخرج الناس وبقى رجال يتحدثون فى البيت بعد الطعام ، فخرج رسول الله ﷺ واتبعته ، فجعل يتتبع حُجَرَ نسائه يسلم عليهن ، ويَقُلْنَ : يا رسول الله ، كيف وجدت أهلك ؟ قال : فما أدرى أنا أخبرته أن القوم قد خرجوا أو أخبرنى ؟ . قال : فانطلق حتى دخل البيت ، فذهبت أدخل معه ، فألقى الستر بينى وبينه ، وأنزل الله آية الحجاب قال : ووعظ القوم بما وعظوا به . .

وزاد ابن رافع فى حديثه أنه قد نزل قوله تعالى ﴿ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ إِلَّآ

---

(١) قوله « فوليتها ظهرى ونكصت على عقبى » معناه : أنه هابها واستجلها من أجل إرادة النبى ﷺ تزوجها ، فعاملها معاملة من تزوجها ﷺ فى الإعظام والإجلال والمهابة .

(٢) وقولها : « ما أنا بصانعة شيئًا حتى أؤامر ربى فقامت إلى مسجدها » : أى ما أنا بصانعة شيئًا حتى أستخير ربى ، فقامت إلى موضع صلاتها من بيتها ، وفيه استحباب صلاة الاستخارة لمن هَمَّ بأمر ، سواء كان ذلك الأمر ظاهره الخير أم لا . وهو موافق لحديث جابر فى صحيح البخارى قال : كان رسول الله ﷺ يعلمنا الاستخارة فى الأمور كلها يقول « إذا همَّ أحدكم بالأمر فليركع ركعتين من غير الفريضة . . . إلى آخره » ولعلهااستخارت لخوفها من تقصير فى حقه ﷺ .

(٣) وقوله ونزل القرآن ، وجاء رسول الله ﷺ فدخل عليها بغير إذن : يعنى نزل قوله تعالى : ﴿ فلما قضى زيد منها وطرًا زوجناكها ﴾ (٣٧/ الأحزاب) فدخل عليها بغير إذن لأن الله تعالى زوَّجه إياها بوحيٍ لا بوليٍّ وشهود بخلاف غيرها .

أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَٱدْخُلُوا۟ فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَٱنتَشِرُوا۟ وَلَا مُسْتَـْٔنِسِينَ لِحَدِيثٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِىَّ فَيَسْتَحْىِۦ مِنكُمْ ۖ وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْىِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ ﴾[1].

وقد روى البخارى عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : إن زينب بنت جحش رضى الله عنها كانت تفخر على أزواج النبى ﷺ فتقول : « زَوَّجَكُنَّ أهاليكن ، وَزَوَّجَنِى الله تعالى من فوق سبع سموات » .

وكانت زينب صالحة ، صوَّامة قوَّامة ، نقية صادقة التدين ، كريمة خَيِّرَة ، تصنع بيديها ما تُحسن صنعه ثم تتصدق به على المساكين ، عيال الله الذى أكرمها وأعزها وآثرها بما لم يؤثر به زوجة سواها ، وكانت له ﷺ زوجًا حبيبة ، وللمؤمنين أمًّا رحيمة ، ولربها عابدة قانتة .

قالت أم سلمة : قال رسول الله ﷺ : « أَسْرَعُكُنَّ لحاقًا بى أطولكن يداً » فَكُنَّا إذا اجتمعنا فى بيت إحدانا بعد وفاة رسول الله ﷺ نمد أيدينا فى الجدار نتطاول ، فلم نَزَلْ نفعل ذلك حتى تُوفيت زينب بنت جحش ، ولم تكن بأطولنا ، فعرفنا حينئذ أن النبى ﷺ إنما أرادَ طُولَ اليدِ بالصَّدَقَة ، وكانت زينب امرأة صناع اليدين ، تدبغ وتحرز ، وتتصدق فى سبيل الله .

وروى أن عمر بن الخطاب أمير المؤمنين أرسل إليها عطاءها اثنى عشر ألفًا ، فجعلت تقول : « اللهم لا يدركنى هذا المال فى قابل ، فإنه فتنة » ثم قسمته فى أهْلِ رحمها ، وفى أهل الحاجة ، فبلغ عمر ذلك ، فوقف ببابها وأرسل إليها السلام وقال : «بلغنى ما فرقت فأرسل ألف درهم تستبقينها » فتصدقت بها جميعًا ولم تُبْقِ منها درهمًا .

وحين حضرتها الوفاة سنة عشرين قالت : « إنى قد أعددتُ كفنى ، وإن عمر أمير المؤمنين سيبعث إلىَّ بكفن فتصدقوا بأحدهما . رحم الله أم المؤمنين زينب ورضى الله عنها وأرضاها .

---

(١) سورة الأحزاب ـ من الآية ٥٣ . والحديث رواه الإمام أحمد ، ، وأخرجه مسلم، والنسائى عن سليمان بن المغيرة .

والحكمة من تحريم التبنى :

أنه يترتب على التبنى حرمان أصحاب الحقوق من الورثة الذين فرض الله لهم ميراثًا مفروضًا حدده لهم ، وبَيَّنَهُ فى كتابه الكريم .

والتبنى فيه إدخال لشخص غير وارث على الورثة ، فيحرمهم أو ينقصهم من استحقاقهم الذى فرض الله لهم .

٧ـ أم المؤمنين جويرية بنت الحارث (سيدة بنى المصطلق) :

فى السنة السادسة للهجرة بعد أن انتهى الرسول من غزوة بنى لِحْيان وغزوة ذى قَرَدٍ بلغ الرسول أن بنى المصطلق يجمعون الجموع لقتال الرسول بقيادة زعيمهم الحارث بن أبى ضرار ، خرج إليهم الرسول ومعه من نسائه عائشة بنت الصديق ، حتى لقيهم على ماءٍ يقال له المُرَيْسِيع ، وكان قتالاً مريرًا انتهى بهزيمة بنى المصطلق ، وسِيقَت نساؤهم سبايا ، وفيهن بَرَّة بنت الحارث بن أبى ضرار زعيم القوم وقائدهم ـ أو جويرية كما سماها الرسول بعد ذلك ـ ورجع الرسول إلى المدينة ليفتقد عائشة ، ثم لا يلبث أن يراها تدخل المدينة على بعير صفوان بن المعطل السلمى فيطمئن عليها .

قال ابن إسحاق عن عائشة رضى الله عنها :

« لما قسم رسول الله ﷺ سبايا بنى المصطلق وقعت جويرية بنت الحارث فى السهم لثابت بن قيس بن الشماس ، فكاتبته على نفسها ، وكانت امرأة حلوة مفرطة الملاحة ، فى نحو العشرين من عمرها ، لا يراها أحد إلا أخذت بنفسه ، فأتت رسول الله ﷺ تستعينه فى كتابتها . قالت عائشة : فوالله ما هو إلا أن رأيتُها على باب حجرتى ، فكرهتُها ، وعرفتُ أنه سيرى منها ﷺ ما رأيت لما توقعته من استملاح رسول ﷺ لها إذا رآها ، وصح ما توقعته فعلاً ، فدخلت عليه فقالت :

« يا رسول الله ، أنا بنت الحارث بن أبى ضرار ، سيد قومه ، وقد أصابنى من البلاء مالم يَخْفَ عليك ، فوقعتُ فى السهم لثابت بن قيس بن الشماس ، فكاتبته على نفسى ، فجئتك أستعينك على كتابتى قال الرسول : « فهل لك فى خير من ذلك ؟ » .

قالت : وما هو يا رسول الله ؟ قال : « أَقْضِي عنكِ كتابتَك وأتزوجك ؟ » .

قالت : نعم يا رسول الله . قال : « قد فعلتُ » .

فقد تأثر الرسول للسيدة الحرة الكريمة المهانة ، والعزيزة المستذلة ، وتألق وجهها وهى لا تكاد تصدق أنها نجت من الضياع والهوان .

ودخلت العروس بيت النبى أمًّا للمؤمنين ، فقد أسلمت ، وحَسُنَ إسلامها ، وما من امرأة أعظم على قومها بركة منها ، فاعتقَ بزواجها من الرسول أهل مائة بيت من بيوت بنى المصطلق ، فأقبل أصحاب الرسول على مَنْ بأيديهم من أسرى قومها ، فأرسلوهم أحرارًا ، وهم يقولون : « أصهار رسول الله » وسمَّاها الرسول « جويرية » .

ويروى أن أباها الحارث جاء المدينة قبل أن يعلن الرسول زواجه بها لفدائها ، فخيرها الرسول ، فقالت : اخترتُ الله ورسوله ، فصاح بصوت جهير : أشهد أن لا إله إلا الله ، وأنك محمد رسول الله ، فخطبَ الرسول إليه ابنته فزوجه إيَّاها ، وأصدقها أربعمائه درهم . وتوفيت بالمدينة المنورة بعد منتصف القرن الأول الهجرى فى عهد معاوية .

٨ ـ أم المؤمنين صفية بنت حُيَى بن أخطب (عقيلة بنى النضير) :

خرج الرسول فى النصف الثانى من المحرم سنة سبع للهجرة إلى خيبر معقل اليهود ، حيث تجمعت فلول المنهزمين من بنى قينقاع وبنى النضير والأحزاب . فما أشرف الرسول على خيبر حتى هتف : « خربت خيبر ، إنَّا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين » .

وخربت خيبر : فُتِحَت حصونها ، وقُتِل رجالها وسُبِىَ نساؤها ، واقتحم المسلمون حصن « القموص » أعز حصون خيبر ، وقتل المسلمون كنانة بن الربيع بن أبى الحقيق صاحب الحصن ، وسيقت نساء القموص سبايا ، وفى مقدمتهن صفية بنت حُيَى بن أخطب زوجة كنانة ، والتى ينتهى نسبها إلى هارون أخى موسى عليه السلام ، وهى لم تتجاوز السابعة عشرة من عمرها . ويذكر ابن إسحاق فى السيرة قصة زواجه ﷺ منها فيقول :

قاد بلال مؤذن الرسول صفية وابنة عم لها ، وَمَرَّ بهما على ساحة امتلأت بالقتلى ، فحزنت صفية حزنًا مكتومًا ، أما ابنة عمها فصكت وجهها وحَثَت التراب على رأسها ،

وجىء بهما إلى الرسول ﷺ فشاح بوجهه عن ابنة عمها ، وقال : « أَغْرِبوا عنى هذه الشيطانة » ثم دنا من صفية فألقى عليها نظرة رحيمة وهو يقول لبلال : « أَنُزِعَتْ منكَ الرحمة يا بلال حتى تمر بامرأتين على قَتْلَى رجالهما ؟ ثم أمر بصفية فَحِيزَتْ خلفه ، وألقَى عليها رداءه ، فكان ذلك إعلانًا بأنه ﷺ قد اصطفاها لنفسه . وانتظر الرسول بخيبر حتى ذهب الروع عن صفية ، فانطلق بها إلى منزل فى أطراف خيبر يريد أن يعرس بها ، لكن صفية تمنعت وتأبت عليه أن يفعل، فعز عليه ﷺ تمنعها ورفضها ، واستأنف مسيره راجعًا إلى المدينة ، فلما كان بالصهباء بعيدًا عن خيبر بدا له أن صفية متهيئة للعرس ، فجاءتها أم أنس بن مالك فَمَشَّطَتْهَا وجملتها ، وقالت عنها أم أنس : إنها لم تَرَ من النساء أضوأ منها ، وأقيمت وليمة العرس حافلة ، وقبل أن يدخل الرسول على صفية سألها : « ما حَمَلَك على الامتناع أولا ؟» أجابت على الفور : « خشيتُ عليكَ قُرْبَ اليهود » فزال ما كان يجد فى نَفسهِ من جفوة ، وأقبلت صفية على الرسول وحدثته حديثًا عجبًا . قالت : إنها فى ليلة عرسها بكنانة بن الربيع رأت فى المنام أن قمرًا وقع فى حجرها ، ولما عرضت رؤياها على كنانة قال غاضبًا : ما هذا إلا أنك تمنين ملك الحجاز محمدًا ، ولطم وجهها لطمة شديدة لا يزال أثر منها فيه .

وهناك خارج القبة التى دخل فيها الرسول على صفية بات أبو أيوب خالد بن يزيد ساهرًا يقظًا ، مُتَوَشِّحًا سيفه على غير علم من الرسول حتى أصبح ﷺ ، فسأله « مالكَ يا أبا أيوب ؟ » أجاب : يا رسول الله ، خفتُ عليكَ من هذه المرأة وهى حديثة عهد بكفر ، وقد قتلت أباها وزوجها وقومها فخفتها عليك ، فدعا له الرسول : « اللهم احفظ أبا أيوب كما بات يحفظنى » ولايزال المسلمون يذكرون يهودية خيبر زينب بنت الحارث التى أحدثت للرسول شاة مسمومة وأكثرت السم فى الذراع لمَّا علمت أنه أحب عضو فى الشاة إلى الرسول . وتناول الرسول الذراع وأعطى بشر بن البراء قطعة أخرى فأكلها ، لكن الرسول لفظها وهو يقول : « إن هذا العظم ليخبرنى أنه مسموم » ولما سألها ﷺ عمَّا حَمَلَها على ذلك أجابت :

« بَلغْتَ مِنْ قومى ما لم يخفَ عليك ، فقلت : إنْ كان نبيًّا فَسَيُخْبَر وإن كان ملكًا استرحتُ منه » فتجاوز عنها الرسول ، ومات بشر بن البراء مِنْ أكْلَته التى أكل .

وبلغ الركب المدينة ، وآثر النبى ألاَّ يدخُلَ على زوجاته بالعروس ، فأنزلها ببيت

حارثة بن النعمان . وخرجت نساء الأنصار ينظرن إلى جمالها ، ولمح الرسول زوجته عائشة تخرج متنقبة على حذر فتتبع خطواتها من بعيد ، فرآها تدخل بيت حارثة بن النعمان، وانتظر حتى خرجت ، فأدركها ، وأخذ بثوبها وسألها ضاحكًا : كيف رأيت يا شُقيراء ؟ أجابت فى غيظ : رأيتُ يهودية . فرد عليها الرسول : « لا تقولى ذلك ، فإنها أسلمت وحَسُنَ إسلامها » .

وشكت صفية للرسولﷺ مفاخرة عائشة وحفصة بأنهن قرشيات عربيات وهى وحدها الأجنبية الدخيلة . فقال لها الرسول : « ألاَ قُلْتِ : وكيف تكونان خيرًا منى وزوجى محمد ، وأبى هارون ، وعمى موسى ؟ » .

وشاركت صفية فى المعركة السياسية التى بدأت فى عهد عثمان ، وأعلنت الولاء لأمير المؤمنين عثمان ، ثم وضعت معبرًا بين منزلها ومنزل عثمان ، فكانت تنقل إليه الطعام والماء وهو فى محنة الحصار . وماتت صفية حوالى سنة خمسين فى عهد معاوية رضى الله عنها .

٩ ـ أم المؤمنين ـ أم حبيبة بنت أبى سفيان :

السيدة أم حبيبة رملة بنت أبى سفيان بن حرب سيد قريش ، وزوج آكلة الأكباد ، وألد أعداء الرسول ، وقائد لواء المشركين عشرين سنة أو يزيد فى حرب الإسلام قبل أن يسلم .

أسلمت وراغمت أباها وقومها فى ذات الله ، وتركتهم وتركت مكة حيث يسود أبوها وتعلو كلمته ، وهاجرت مع زوجها عبد الله بن جحش إلى الحبشة ، وبعد ذلك يشاء الله لزوجها أن يرتد عن الإسلام ويتنصَّر [1] ، ولم تتنصر معه ، فظلت على إسلامها وإيمانها ؛ ولذلك كان جزاؤها عند الله أن يكتبها زوجًا للرسول المصطفى محمد بن عبد الله ؛ لتظفر بشرف لقب أم المؤمنين .

مات زوجها فى بلاد الحبشة وتركها هناك غريبة وحيدة ، فأرسل الرسول صلى الله عليه وسلم حينما بلغه هذا الخبر إلى « النجاشى » ملك الحبشة يطلب إليه أن يزوجه

---

(١) أى : يصير على دين النصرانية .

إياها ، فأرسل إليها النجاشيُّ لتوكل مَنْ يزوجها من النبى صلى الله عليه وسلم ، فوكلت خالد بن سعيد بن العاص بن أمية ، كبير المهاجرين من قومها بنى أمية ، فزوجها النجاشى من الرسول صلى الله عليه وسلم ، وأمهرها من ماله أربعة آلاف درهم ، وجهزها من عنده . وعاد عمرو بن أمية الضمرى الذى بعثه النبى صلى الله عليه وسلم إلى النجاشى ملك الحبشة بمن بقى من مهاجرى الحبشة الأولين ، وعاد الرسول بعد فتح خيبر والنصر الساحق على يهودها ليلتقى بالمهاجرين ، والتزم ابن عمه جعفر بن أبى طالب معانقاً ، وقَبَّلَ عينيه وهو يقول فى غبطة : « ما أدرى بأيهما أنا أُسَـرُّ : بفتح خيبر أم بقدوم جعفر ! » . وهناك بين المهاجرات العائدات كانت أم حبيبة بنت أبى سفيان بن حرب تنتظر الرسول ليحملها إلى بيته .

واحتفلت المدينة بدخول بنت أبى سفيان بيت الرسول ، وأولم عثمان بن عفان وليمة حافلة نحر فيها الذبائح ، وأطعم الناس اللحم . واستقبلت نساء النبى زميلتهن أم حبيبة ، ولم يكن قد مضى على زواج الرسول من صفية بنت حُيَى عقيلة بنى النضير أيام معدودات .

وضمها النبى صلى الله عليه وسلم إلى زوجاته إعزازًا بشأنها ، وتقديرا لصنيعها ـ كان ذلك بعد الحديبية .

كانت أشد ما تكون غيرة على الإسلام ، وعلى رسول الإسلام صلى الله عليه وسلم، فعندما جاء أبوها إلى المدينة حيث أرسلته قريش ليتفاوض مع الرسول فى تجديد هدنة صلح الحديبية عشر سنوات بعد أن سمعت قريش أن الرسول يتأهب للخروج إلى مكة، وفوجئت أم حبيبة بأبيها فى بيتها لعلها تُعينه على ما جاء من أجله ، ولم تكن قد رأته منذ هاجرت إلى الحبشة ، ودخل عليها ، فما كاد يهم بالجلوس على فِرَاشِ الرسول صلى الله عليه وسلم حتى طوته عنه كراهة أن يجلس عليه وهو مشرك .

فسألها : أَطَوَيتِهِ يا بُنية رغبة بى عن الفراش، أم رغبة بالفراش عنى ؟ أجابت : هو فراش رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأنت رجل مشرك ، فلم أحب أن تجلس عليه . وانصرف يائسًا وتركها محزونة القلب ، تدعو الله أن يهدى أباها للإسلام .

واستجاب الله لدعائها ، فأسلم أبو سفيان يوم فتح مكة .

فعندما كان الرسول صلى الله عليه وسلم فى طريقه إلى فتح مكة فى عشرة آلاف من المسلمين عسكر فى « مر الظهران » ترقبًا للمعركة الفاصلة ـ أقبل أبو سفيان بن حرب فبات ليلته بباب النبى انتظاراً لأمره صلى الله عليه وسلم فى أهل مكة وفى الصباح دخل على الرسول ، فقال له صلى الله عليه وسلم : ويحك يا أبا سفيان ! ألم يأن لكَ أن تعلم أنه لا إله إلا الله ؟ أجاب : بأبى أنت وأمى ، ما أحلمك وما أكرمك وأوصلك ، والله لقد ظننت أن لو كان مع الله إلهٌ غيره لقد أغْنَى شيئًا بعد . قال الرسول : ويحك يا أبا سفيان : ألم يأن لكَ أن تعلم أنى رسول الله ؟ ـ أجاب : بأبى أنت وأمى ، ما أحلمك وأكرمك وأوصلك ، أما هذه فوالله إنَّ فى النفس منها حتى الآن شيئًا ، ولكنَّ أبا سفيان ما لبث أن أعلن إسلامه .

فالتمس العباس بن عبد المطلب أن يكرم الرجل بشىء يُرْضِى حبه للفخر ، فأجاب النبى الكريم صلى الله عليه وسلم نعم : « مَنْ دخَلَ دار أبى سفيان فهو آمِن ، ومَنْ أغلق بابه فهو آمن ، ومن دخل المسجد الحرامَ فهو آمن » .

وعندما علمت أم حبيبة بذلك سعدت سعادة غامرة لهذا التكريم الذى ناله أبوها من زوجها الرسول الكريم الحليم النبيل ، وسجدت لله شاكرة .

وإذْ كان الرحيل دعت إليها عائشة بنت أبى بكر وقالت لها وهى تحتضر : «قد كاد يكون بيننا ما يكون بين الضرائر فتحللينى من ذلك » .

فحللتها عائشة ، واستغفرت لها ، فهمت : « سَررتِنى سرَّكِ الله » وفعلت ذلك مع أم سلمة بنت زاد الركب ، وأودع جسدها الطاهر بالبقيع سنة أربع وأربعين من الهجرة .

١٠ـ مارية القبطية أم إبراهيم :

وإن لم تُلقَّبْ بأم المؤمنين ، لكنها حظيت دون نساء النبى جميعًا بشرف أُمومتها لإبراهيم عليه السلام ، ولم تقم فى دور النبى الملحقة بالمسجد ، وأقامت فى منزل خاص بالعالية .

وفد حاطب بن أبى بَلْتَعة مُفَوَّضًا من الرسول صلى الله عليه وسلم بحمل رسالة إلى المقوقس عظيم القبط ، حاكم مصر : « بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد بن

عبدالله إلى المقوقس عظيم القبط ، سلام على من اتبع الهدى ، أما بعد فإنى أدعوك بدعاية الإسلام ، أَسْلِمْ تَسْلَمْ يُؤتِكَ الله أجرَكَ مرتين ، فإن توليت فإنما عليك إثم القبط . يأهلَ الكتاب ، تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألاّ نعبد إلا الله ، ولا نشرك به شيئًا ، ولا يتخذ بعضُنا بعضًا أربابًا من دون الله ، فإن تَوَلَّوْا فقولوا اشهدوا بأنَّا مسلمُون » .

ورد المقوقس على رسول الله صلى الله عليه وسلم :

أما بعد ، فقد قرأتُ كتابَك وفهمتُ ما ذكرت فيه ، وما تدعو إليه ، وقد علمتُ أن نبيًّا قد بقى ، وكنت أظن أن يخرج من الشام ، وقد أكرمتُ رسولك وبعثت لك بجاريتين لهما مكان من القِبطِ عظيم ، وبثياب ومطية لتركبها والسلام عليك » .

وانطلق حاطب عائدًا إلى النبى صلى الله عليه وسلم ومعه مارية وأختها سيرين ، وعبدٌ خصى ، وألف مثقال ذهبًا وعشرون ثوبًا لينًا من نسيج مصر ، وجواد مصرج ملجم ، وحمار أشهب ، وبعض العسل والعود والمسك . وتلقى صلى الله عليه وسلم كتاب المقوقس وهدية مصر ، واكتفى بمارية ، ووهب أختها سيرين لشاعره حسان ابن ثابت ، وأنزلها رسول الله بمنزل حارثة بن النعمان قرب المسجد .

استقبلت مارية عامها الثانى فى حياة الرسول صلى الله عليه وسلم بفرحة غامرة ، وشكر لله عز وجل الذى آثرها بالنعمة الكبرى ، نعمة الحَمْل وأمهات المؤمنين محرومات لا يَلِدْنَ .

واشتعلت الغيرة حتى وصلت إلى حد أن اتُّهِمَتْ مارية بخادمها التى اتضح أنه عبد مخصىٌّ ، ونقلها الرسول إلى العالية بضواحى المدينة توفيرًا لراحتها وسلامتها وسلامة جنينها . وذات ليلة من شهر ذى الحجة سنة ثمان من الهجرة جاءته قابلتها أم رافع سلمى زوج أبى رافع ببشرى الوليد ، فاستقبله بالفرح والحب ، وسماه إبراهيم ، تيمنًا باسم جد الأنبياء ، وتصدق صلى الله عليه وسلم على كل مسكين فى المدينة بوزن شعر الوليد وَرِقًا(١) .

---

(١) أى : فضة .

ولما بلغ إبراهيم عامين من عمره مَرِضَ ، ووضعه الرسول فى حجره وهو يجود بنفسه ويقول فى أسى وتسليم : إنَّا يا إبراهيم لا نُغْنِى عنك من الله شيئًا . وانحنى على جثمان فقيده يُقَبِّلُه والد مع يفيض من عينيه ويقول :

« تدمُع العين ، ويحزن القلب ، ولا نقول إلاَّ ما يُرضى الرَّبَّ ، وإنَّا يا إبراهيم عليك لمحزونون ، وإنا لله وإنا إليه راجعون » ونظر لمارية وقال يواسيها : « إن له لمرضعًا فى الجنة » وحمله الرسول إلى البقيع ، وصلى عليه وصحابته وأضجعه بيده فى قبره، وانكسفت الشمس ، فقال قائل : إنها انكسفت لموت إبراهيم . فقال الرسول لأصحابه : إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا تنكسفان لموت أحد ولا لحياته. ولم تطل أيام الرسول بعد موت إبراهيم فى السنة العاشرة للهجرة ، فلحق بربه الأعلى فى الربع الأول من السنة الحادية عشرة ، وعاشت بعده مارية خمس سنوات فى عُزلة عن الناس ، لا تخرج إلا لكى تزور قبر الرسول بالمسجد أو قبر ولدها بالبقيع ، ولما ماتت صلى عليها أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ودفنها بالبقيع .

ووَصَّى الرسول أصحابه بقوم مارية ، حيث قال : « استوصوا بالقِبْطِ خيرًا ، فإنَّ لهم ذمة ورَحِمًا » ولما جاء عبادة بن الصامت مصر بعد فتحها بَنَى موضع بيت مارية مسجدًا .

وجاء فى بحث للعلامة الهندى الدكتور محمد حميد الله الأستاذ بجامعة السربون ، والذى يُعَدُّ حجة فى جمع الوثائق والمعاهدات النبوية قوله :

« ورسالة الرسول التى حملها حاطب بن أبى بلتعة إلى المقوقس محفوظة فى صندوق ذهب فى متحف (طوب كابى سراى) باستانبول بتركيا .

وهى إحدى ثلاث رسائل كان النبى صلى الله عليه وسلم بعث بها إلى ملوك الدول يدعوهم إلى الإسلام ، وهى مكتوبة على جلد جَمَل ، أو جلد غزال .

١١ـ أم المؤمنين ميمونة بنت الحارث بن حزن :

فى العام السادس للهجرة صد المشركون الرسول والمسلمين عن المسجد الحرام ، وعادوا فى العام التالى وبَقُوا بها ثلاثة أيام طبقًا لما نص عليه عهد الحديبية . والرسول الكريم يدخل مكة معتمرًا إذا بسيدة من أكرم سيدات مكة يهفو قلبها إلى رسول الله

صلى الله عليه وسلم ، وتعرض أن تتزوج الرسول ـ تلك كانت بَرَّة بنت الحارث بن حزن الهلالية ، خالة خالد بن الوليد وعبد الله بن عباس ، وإحدى أخوات أربع قال فيهن الرسول : الأخوات المؤمنات .

أخت شقيقة لها ، هى أم الفضل بنت الحارث زوجة العباس بن عبد المطلب ، وأول امرأة آمنت بالرسول بعد خديجة عليها السلام ، السيدة التى شجت رأس أبى لهب حين ضرب أبا رافع مولى أخيه العباس ضربًا مبرحًا لأنه أسلم ، شجت رأسه بعمود وهى تقول : استضعفته أن غاب عنه سيده .

وأختان من أمها : الأولى أسماء بنت عُمَيْس الخَثْعمِية زوجة جعفر بن أبى طالب والثانية سلمى بنت عميس زوجة حمزة بن عبد المطلب شهيد أحد .

وكانت برة إذ ذاك أرملة فى السادسة والعشرين من عمرها ، وقد مات عنها زوجها أبو رهم بن عبد العُزى القرشى العامرى . وأفضت برة إلى شقيقتها أم الفضل بما يهفو إليه قلبها ، فتحدثت به الأخت إلى زوجها العباس ، الذى أتى رسول الله ابن أخيه وعرض عليه أن يتزوجها ، واستجاب الرسول ، وأصدقها أربعمائة درهم وبعث ابن عمه جعفرًا زوج أختها أسماء يخطبها .

وكانت الأيام الثلاثة التى نص عليها عهد الحديبية قد قاربت نهايتها ، فجاء رسولان من قريش يطلبان إلى الرسول أن يخرج ، إذ انقضى الأجل المنصوص عليه فى العهد ، فقال لهم مسالمًا : ما عليكم إنْ تركتمونى فأعرستُ بين أظْهُرِكُم وصنعنا لكم طعامًا فحضرتموه .

فأجَابَا فى غلظة : « لا حاجة لنا فى طعامك ،فاخرج عنا » فأَذَّنَ الرسول فى المسلمين بالرحيل وفاءً لعهده ، تاركاً مولاه أبا رافع بمكة ليلحق به فى صُحْبَة « برة » فى « سَرف » قرب التنعيم ، وجاءت برةُ يصحبها مولى الرسول ، فبنَى بها صلى الله عليه وسلم هناك ، ثم رجع بها إلى المدينة وسماها ميمونة أن كان زواجه بها فى المناسبة الميمونة الغراء التى دخل فيها الرسول والمسلمون أم القرى لأول مرة منذ سبع سنين .

وكان صلى الله عليه وسلم فى بيتها حين اشتد به الألم فى مرض الموت ، فرضيت أن ينتقل الرسول حيث أحب إلى بيت عائشة ، ولما انتقل عليه الصلاة والسلام إلى جوار

ربه الأعلى عاشت « ميمونة » تتذكر اليوم الميمون الذى جمعها بالرسول حتى ماتت ـ بعد منتصف القرن الأول للهجرة ، حيث دُفنت بناء على وصيتها فى البقعة المباركة فى «سرف » قرب ـ التنعيم ، حيث بَنَى بها رسول الله صلى الله عليه وسلم . وشيعتها السيدة عائشة رضى الله عنها بقولها : « ذهَبَتْ واللهِ « ميمونة » إما إنها كانت والله مِنْ أتقَانا لله وأوْصَلِنَا للرَّحِم » وهى آخر من تزوج صلى الله عليه وسلم .

النساء اللاّئى وَهَبْنَ أنفسهن للنبى ﷺ : قال تعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَٰجَكَ ٱلَّٰتِىٓ ءَاتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّٰتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَٰلَٰتِكَ ٱلَّٰتِى هَاجَرْنَ مَعَكَ وَٱمْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِىِّ إِنْ أَرَادَ ٱلنَّبِىُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۗ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِىٓ أَزْوَٰجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾(١) .

ففى الآيات يحل الله للنبى صلى الله عليه وسلم أنواع النساء المذكورات فيها ، ولو كُنَّ فوق الأربع ـ مما هو مُحَرَّمٌ على غيره ـ وهذه الأنواع هى : الأزواج اللواتى أمْهَرَهُنَّ ، وما ملكت يمينه إطلاقاً من الفىء ، وبنات عمه ، وبنات عماته ، وبنات خاله ، وبنات خالاته ، ممن هاجرن معه دون غيرهن ممن لم يهاجرون ـ إكرامًا للمهاجرات ـ وأيما امرأة وهبت نفسها بلا مهر ولا ولىٍّ إنْ أراد النبى نكاحها .

---

(١) سورة الأحزاب الآية : ٥٠ .

وقد ذكر المفسرون أن النساء اللآئى وهبن أنفسهن لرسول الله صلى الله عليه وسلم أربع : زينب بنت خزيمة أم المساكين الأنصارية ، وميمونة بنت الحارث ، وأم شريك بنت جابر ، وخولة بنت حكيم .

وقد تضاربت الروايات حول ما إذا كان النبى صلى الله عليه وسلم قد تزوج واحدة من هذا الصنف من النساء أم لم يتزوج ، والأرجح أنه زوج اللواتى عرضن أنفسهن عليه من رجال آخرين ، فيما عدا زينب بنت خزيمة أم المساكين الأنصارية التى تزوجها رسول الله صلى الله عليه وسلم .

والنساء اللاتى وهبن أنفسهن للنبى صلى الله عليه وسلم من خصوصياته عليه الصلاة والسلام لقوله تعالى : ﴿ وَٱمْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (١) . وذلك لأنه ولىُّ المؤمنين والمؤمنات جميعًا .

أما الآخرون فهم خاضعون لما بينه الله وفرضه عليهم فى أزواجهم وما ملكت أيمانهم ، ذلك لكيلا يكون على النبى حرج فى استبقاء أزواجه ، وفى الاستجابة للظروف الخاصة المحيطة بشخصه .

ثم ترك الخيار له صلى الله عليه وسلم فى أن يضم إلى عصمته مَنْ شاء ممن يعرضن أنفسهن عليه ، أو يؤجل ذلك ، ومن أرجأهن فله أن يعود إليهن حين يشاء ، وله أن يُباشر من نسائه من يريد ، ويرجىء من يريد ، ثم يعود ﴿ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَآ ءَاتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ ﴾ (٢) . فهى مراعاة للظروف الخاصة المحيطة بشخص الرسول صلى الله عليه وسلم ، والرغبات الموجهة إليه ، والحرص على شرف الاتصال به ، مما يعلمه ويدبره بعلمه وحلمه ﴿ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى قُلُوبِكُمْ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا ﴾ (٣) . ثم أنزل الله تحريم من عدا

(١) سورة الأحزاب ـ من الآية الخمسين .
(٢) سورة الأحزاب ـ من الآية الحادية والخمسين .
(٣) سورة الأحزاب ـ من الآية الحادية والخمسين .

نسائه اللواتى فى عصمته فعلا ، لا من ناحية العدد ، ولكن هن بذواتهن ، لا يستبدل بهن غيرهن . ﴿ لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعْدُ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَٰجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ ﴾ (١) .

(د) عهد لم يتزوج فيه أى زوجة :

وبدأ من السنة الثامنة للهجرة بعد فتح مكة ، وكان الرسول صلى الله عليه وسلم فى الستين من عمره ، وإلى آخر حياته صلى الله عليه وسلم لم يتزوج زوجة جديدة على الإطلاق ، فاقتصر الرسول صلى الله عليه وسلم على مَنْ عنده من الزوجات التسع ، ولم يتزوج سواهن .

وبعد فهذه لمحة سريعة عن زوجات الرسول التسع .

وهكذا نرى أن لكل زوجة من أزواجه صلى الله عليه وسلم قصة وسببًا فى زواجه منها ، وهن - فيما عدا زينب بنت جحش ، وجويرية بنت الحارث وصفية بنت حُيَىٍّ - لم يَكُنَّ صغيرات السن ، ولا ممن يرغب فيهن الرجال لجمالٍ ، وكانت عائشة رضى الله عنها هى أحب نسائه إليه .

بل هاتان اللتان عُرِفَ عنهما الجمال والشباب كان هناك عاملٌ نفسى وإنسانى آخر فى زواجه منهما .

هؤلاء هُن النساء التسع اللواتى تزوج بهن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وبقين بعد حياته ، وأصبحن أمهات المؤمنين .

أما مارية القبطية فظلتْ أَمَةً له صلى الله عليه وسلم .

ثانيا : الرد على افتراءات المضللين :

إن الضرورات التى قضت بالتعدد وما تنطوى عليه من إنسانية وحكمة عالية لتذيب كل الشكوك التى أثارها المضللون عن حياة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم مثلاً أعلى فى معاملته لزوجاته .

---

(١) سورة الأحزاب - من الآية الثانية والخمسين .

كما كان يمثل الوفاء للزوجة فى أتم صوره .

ففى القَسْم كان يبيت عند كل واحدة من أزواجه ليلة .

فعن عائشة رضى الله عنها قالت :

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقسم ويعدل ويقول :

« اللهم هذا قَسْمِى فيما أملك ، فلا تَلُمْنِى فيما تملكُ ولا أملك » يعنى القلب .

وقد ظل الرسول صلى الله عليه وسلم وفيًّا لخديجة رضى الله عنها بعد موتها ، يذكرها من حين لآخر ذكر الزوج الوفى للعهد .

فعن عائشة رضى الله عنها قالت :

« ما غِرْتُ على أحَدٍ من نساء النبى صلى الله عليه وسلم ما غِرْتُ على خَدِيجَة رضى الله عنها ، وما رَأَيْتُها قط ، لكن كانَ يُكْثِرُ ذِكْرَهَا ، وربما ذَبَح الشاةَ ثم يقطعها أعضاء، ثم يبعثها فى صَدائِق خديجة ، وربما قلت له : كأنه لم يكن فى الدنيا امرأة إلا خديجة ؟! فيقول : إنها كانت . . . وكانت . . . وكَانَ لى منها الوَلَد » .

قالت : وتزوجنى بعدها بثلاث سنوات .

وكان صلى الله عليه وسلم مثلا أعلى فى العدل بين زوجاته وحسن معاملتهن حتى أنه صلى الله عليه وسلم بعث إلى نسائه فى مرضه فاجتمعن فقال :

« إنى لا أستطيع أن أَمُرَّ عليكن ، فإنْ رأيتُنَّ أَنْ تَأْذَنَّ لى فأكون عند عائشة فَعَلْتُنَّ ؟ فَأَذِنَّ له » .

ولو فكرنا فى موقف الرسول صلى الله عليه وسلم إذ ذاك لرأينا أن الرجل العادى كان نطاق تعدد الزوجات بالنسبة له أوسعَ من النطاق الخاص بالرسول ، فقد كان فى مقدور الرجل العادى أن يتزوج أى عدد شاء إذا سمح له ضميره بذلك ،مادام لا يجمع فى عصمته أكثر من أربع .

أما الرسول فقد قصرته الآية الكريمة على نسائة التسع ، فلا يجوز أن يتزوج غيرهن على الإطلاق ﴿ لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعْدُ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَٰجٍ ﴾(١) .

وباستثناء السيدة خديجة أُولَى زوجاته صلى الله عليه وسلم ، والتى تُوفيت قبل أن يتزوج أى واحدة منهن ، وكذلك زوجته السيدة زينب بنت خزيمة أم المساكين ـ والتى تزوجها بعد السيدة عائشة ، وقبل السيدة صفية ـ والتى توفيت بعد قليل من زواجها من الرسول صلى الله عليه وسلم ، فإن آية التحديد قصرت الرسول صلى الله عليه وسلم على زوجاته التسع اللواتى فى عصمته ، فلا يجوز أن يتزوج غيرهن على الإطلاق ، لا من ناحية العدد ولكن هن بذواتهن لا يستبدل بهن غيرهن ، وقد بقين كلهن أحياء حتى وفاته صلى الله عليه وسلم .

فليس فى الأمر امتياز للرسول فى دائرة الزواج كما يلوح به المضللون ، بل كان الأمر على عكس ما يقولون .

ويتحدث فضيلة الشيخ محمد متولى الشعراوى عن هذا الموضوع فى إحدى محاضراته ، فيقول :

حينما نناقش أى تصرف من تصرفات رسول الله صلى الله عليه وسلم نناقشه على أنه تصرف رسول ، فيجب ألا ننظر إلى التصرف فى ذاته دون أن ننظر إلى موقفه صلى الله عليه وسلم من ربه ، وأنه هو الواسطة ، وهو المُبلغ ، وهو لا ينطق ولا يفعل أى شىء عن هوى .

فحين نناقش الأمر على هذا الوضع لا نجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم هدفًا لنزن نحن أعماله : أكان يصح أن يعملها أم لا يعملها ؟ لأننا حينئذ نكون قد رددنا فِعْلَ رسول الله إلى موازين نرى أن الكمال فيها .

فكأننا نقلنا الأمر ، فبعد أن كان هو صلوات الله وسلامه عليه ميزان الكمال ، وتصرفه هو الأصل فى أن تُوزَنَ عليه الأعمال ، يصبح تصرفه صلى الله عليه وسلم رهنًا بموازين البشر ، يضعونها ليقولوا : ما كان يصح على رسول الله أن يفعل كذا ، أو كان

---

(١) من الآية الثانية والخمسين من سورة الأحزاب .

يصح أن يفعل كذا ، وذلك قَلْبٌ للأوضاع؛ لأننا وضعنا الرسول موضع المُحاسب على تصرفاته .

إذن فالمؤمن حين آمن بالله ربًّا ، وآمن بمحمد صلى الله عليه وسلم رسولا مُبَلِّغًا عن ربه ، أصبح هو الأصل فى كل شىء .

فحين نأتى لأى فعل من فعله صلى الله عليه وسلم يجب ألاّ يتعدى بحثنا : أفعله أم لم يفعله ، فإن كان قد فعله فذلك ما يتسق مع وضعه كمشرِّع ثان بعد كتاب الله عز وجل ، أما أن نعكس الأمر فتلك إحالة .

ورسول الله صلى الله عليه وسلم حين يستقبل أمرًا قولاً أو فعلاً أو إقراراً إنما يصدر عن كل ذلك فى دائرة قوله تعالى : ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴾ (١) .

أى أنه لا هوى له شخصيًّا يخدمه بأى تصرف من هذه التصرفات ، وإنْ وافق التصرف ما يمكن أن يكون هَوًى فى عُرْف البشر ، إلا أن البشر غير مؤيدين من الله وغير معصومين .

ففعل البشر يُقاس كفعل .

ولكن فعل الرسول يُقاس كفعلٍ من رسول .

ومادام يُقاس كفعلٍ من رسول فكل بحث لنا أن نوثق ما صدر عن رسول الله إنْ كان قد فَعَلَ ، فذلك الفعل هو الذى ينطبق مع مهمته .

وإن كان لم يفعل فعدم الفعل هو الذى ينطبق على مهمته .

ولكن خصوم الإسلام الذين لم يستطيعوا أن يجدوا فى الإسلام ولا فى القرآن ثغرة ، ولا فى حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ثغرة ، خَلاَ لهم أن يدخلوا مدخلاً فى أن رسول الله ﷺ تَعَدَّى العَدد الذى انتهى التشريع إليه فى إباحته للرجل .

لقد كان تعدد الزوجات بالنسبة للرجل الواحد أمرًا معروفًا قبل أن يحدده الإسلام بلا حد وبلا عد ، فجاء الإسلام ليحدد هذا التعدد بأربع .

---

(١) الآية الثالثة من سورة النجم .

ولكن رسول الله صلى الله عليه وسلم اسْتُثْنِيَ من تحديد هذا العدد .

والذى يبحث هذا البحث يجب أن ينظر :

هل رسول الله صلى الله عليه وسلم حين أبيح له أن يجمع تسع زوجات معه ، أَأُبِيحَ له عدد تسع أم أبيحت له معدودات تسع ؟

إن الذى أُبِيحَ لرسول الله ليس عددًا ، وإنما معدودات .

وفرق بين إباحة العدد وإباحة المعدودات ، كيف ؟

إذا أبيح العدد فلرسول الله أن يُطَلِّقَ ثم يتزوج ، ثم يطلق ويتزوج ، ويطلق ويتزوج ، لأنه مربوط بعدد لا يتعداه .

ولكن الأمر بالنسبة لرسول الله لم يكن كذلك ، إنه لم يُبَحْ له عدد تسع ، وإنما أُبِيحَ له معدودات تسع .

بمعنى أنه لو فقد معدودة من هذه المعدودات فليس له أن يعوضها بما يعطيه العدد « التسع » .

إذن فيجب أن يفطن الناس إلى أن رسول الله صلى عليه وسلم أُبيح له أن يجمع معدودات تسعًا بخصوصهن ، لا عددَ « تسع » .

لأنه لو كان أُبيح له العدد « تسع » لكان من الممكن له أن يُغَيِّر فى نطاق هذا العدد ، ولكن الله تعالى يقول له :

﴿ لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعۡدُ ﴾ يعنى : من بعد النساء الموجودات معك .

﴿ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجٍ ﴾ [1] وهذا حكم خاص بالرسول .

ومادام الله لم يبح له النساء بعد ، ولا أن يتبدل بهن من أزواج ، إذن فهؤلاء الزوجات مقصودات لذواتهن ، كل واحدة منهن تمثل حكمة من حِكَم الله ـ ولو أن الإباحة لعدد لما كان لخصوص هؤلاء الزوجات وضع بالنسبة لمقامه صلى الله عليه وسلم .

---

(١) سورة الأحزاب ـ من الآية الثانية والخمسين .

إذن فلو نظرنا إلى هذه المسألة لوجدنا أن رسول الله لم يوسع عليه فى أمر النساء ، وإنما ضيق عليه ؛ لأن الواحد من أُمته له أن يجمع أربعًا ، وإذا ماتت منهن واحدة أو طلق له أن يأتى بغيرها ، بحيث لا يزيد العدد على أربع .

فكل واحد له أن يُديرَ نساء كثيرات فى إطار هذا العدد ، ربما يصِلْنَ إلى عشرين أو إلى أربعين ، أو أكثر ، ولكن رسول الله أبيحت له المعدودات لا العدد ، فكأن رسول الله بالنسبة لأمته لم يوسع عليه فى أمر هذه الزيجات ، وإنما ضيق عليه ، فالتحقيق الدقيق المنطقى العادل يقول : إن رسول الله ضُيق عليه فى هذا الأمر .

وهناك أمر آخر يجب أن نبحث عنه هذا البحث هو : أكان رسول الله يتزوج ؟ أى أن له هوًى ذاتيًا أو مَيْلاً شخصيًا أو عاطفيًا فى أن يتزوج ، أم كان يُزَوَّج ؟

والفرق بين الأمرين أن الذى يتزوج ينساق إلى ميوله وإلى غرائزه وإلى عواطفه البحتة غير مربوط بمقياس أعلى يرده إلى ما يراد منه . ورسول الله لم يكن هكذا . بل كان رسول الله يُزَوَّج ، ويُزَوَّجُ من الله ، والدليل على ذلك حادثة زينب بنت جحش نفسه ، الأصل الأصيل فى هذا الهجوم ، والتى يطير بها المستشرقون ، ولو أنهم أرادوا أن يعرفوا فيها فقه الموضوع بدقة وأمانة ونزاهة لرجعوا إلى السرد التفصيلى الواضح لهذه القصة بالقرآن الكريم .

أهو تزوجها أم زُوِّجَهَا من الله ؟

ومادام الله هو الذى زَوَّجَهُ

فمحمد مُرَادٌ منه لامُرِيدٌ . مراد منه أن يفعل ، لا مريدٌ ، بدليل أنه تأبى أول الأمر، فيقول الحق تبارك وتعالى مُبَرِّئًا ساحة محمد صلى الله عليه وسلم :

﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا ﴾(١) .

منَ الذى زَوَّجَ ؟ إنه هو الله .

ومن الذى زُوِّجَ ؟ إنه محمد ، تزوج بزينب .

---

(١) سورة الأحزاب ـ من الآية ٣٧ .

إذن فلم يكن زواج محمد بزينب عن هوًى منه .

ولم يكن زواج محمد بزينب عن رغبة وعاطفة كما يريد هؤلاء أن يصوروا ، إذن فالمسألة لها حكمة .

وهى أن التبنى كان موجودًا عند العرب ، ويريد الحق سبحانه وتعالى أن يخلع الناس من عادة أَلِفُوهَا ، وهو أن يجعلوا المتبنى له حكم الابن حقيقة ، فلا يتزوج الرجل امرأة متبناه ، كما لا يتزوج الرجل امرأة أبيه .

فأراد الحق سبحانه وتعالى أن يلغى هذا ، وأن يلغيه بفعل رسوله صلى الله عليه وسلم .

زينب كانت زوجة لزيد بن حارثة ، ورسول الله هو الذى زوجها لزيد ، وهى فى نضارتها وفى جمالها ، ولو أن لرسول الله فكرة عاطفية فيها لاستبقاها ولم يزوجها . وزَوَّجها لزيد ليرفع من شأنه أمام من يظنون أنه مولًى ، وأنه عبد يرفعه الرسول بأن يزوجه من قريبته صلى الله عليه وسلم ليزيل من الناس الفوارق الطبيعية التى تسيطر عليهم .

ويشاء الحق تبارك وتعالى ألاَّ توجد بين زيد وبين زينب أُلْفَة ، فيشاء زيد أن يطلقها ، فيقول له الرسول : ﴿ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ ﴾ (١) .

لو كان لرسول الله هوًى فى زينب لاستجاب لزيد أول الأمر .

إلى أن يقول الله عتاباً له :

﴿ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ ﴾ (٢) .

---

(١) سورة الأحزاب ـ من الآية ٣٧ .

(٢) سورة الأحزاب ـ من الآية ٣٧ .

إذن فالمسألة سابقة من محمد صلى الله عليه وسلم ليُؤَصِّلَ أصلاً من أصول الدين .

وإذا نظرنا إلى تزويج النبى صلى الله عليه وسلم من الله لوجدنا أن كل شىء فى أمره موكول إلى ربه : افْعَلْ ولا تَفْعَلْ .

نقرأ قوله سبحانه وتعالى حينما اجتمع نسوته يَسْأَلْنَهُ النفقة ، فماذا قال ؟

قال الحق :

﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ﴾(١) . أى يطلقكن الله من محمد .

فالله هو الذى يبدله ، أى : أن محمدًا لا رَأْىَ له فى الأمر ، ولكن الله يُزَوِّجه بمن يشاء لحكمة يعلمها الحق سبحانه وتعالى .

فخديجة وعمرها أربعون سنة ورسول الله يتزوجها وعمره خمسٌ وعشرون سنة ، وبعد أن تموت يتزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم من سَوْدَة بنت زمعة ، وهى كبيرة فى السن ، ولا تحقق مأرباً لرجل ، وتهب ليلتها لعائشة .

وأم حبيبة بنت أبى سفيان يتزوجها الرسول بعد أن تنصَّرَ زوجها وقلاها أبوها . . وهكذا .

وأيضًا يجب أن نعلم أن أى رجل يتزوج العدد ثم يطلق ، فلامرأته أن تتزوج بغيره ولكن رسول الله صلى الله عليه وسلم لو فارق خمسًا وأبقى أربعًا كسائر المؤمنين فاللاتى فارقهن رسول الله لا يتزوجن أحدًا ؛ لأنهن أمهات المؤمنين ، وهن بمنزلة أمهاتهم ، ومكانهن الخاص من رسول الله يحرم أن ينكحهن أحد من بعده ، احتفاظاً بحرمة هذا النسب وجلاله وتفرده ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا۟ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓا۟ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًا ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا﴾(٢) .

---

(١) سورة التحريم ـ من الآية الخامسة .

(٢) سورة الأحزاب ـ من الآية الثالثة والخمسين .

إذن فالحكمة فيما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يجب أن نستقبل فعله بأنه هو الأصل ، ويجب ألا نقيس فعله على موازين الكمال من نفوسنا ، وقد آمنا به كرسول ، ومادمنا قد آمنا به كرسول فكل تصرفاته دائماً على العين والرأس ، رَضِيَ مَنْ رَضِيَ ، وأَبَى مَنْ أَبَى .

ورسول الله فوق أن يكون هو رسول إنما كان إنسانًا مثلاً أعلى فى اتزانه وفى استقامته على منهج الحق ، حتى قبل أن يُبْعَثَ ، فكيف نأتى لتصرفاته بعد أن بُعِثَ رسولا ونناقشها .

اللهم إنه رسولك مافعله حق ؛ لأنه لم يفعله عن هوى ، وإنما فعله عن حكمة وتأصيل .

لماذا انفرد الرسول ﷺ دون أصحابه بعد نزول آية التحديد بأكثر من أربع زوجات ؟ ولماذا لم يطلق ما زاد على الأربع كما أمر الصحابة ؟

إن آية تحديد الزوجات بأربع نزلت فى السنة الثامنة من الهجرة على ما قاله المحققون ، وكان ذلك بعد ارتباطه بزوجاته جميعًا ﷺ .

وقد كان الزواج بغير حد من قبل .

وآية سورة النساء التى فيها التحديد نزلت بعد سورة الأحزاب التى منع الله فيها رسوله أن يتبدل بأزواجه غيرهن .

ومنع أيضًا زوجات النبى أن يتزوجن بعده ، فلو فارق الرسول ﷺ من زاد على أربع لَمَا وجدن من يتزوجهن ؛ لأنهن محرمات على كل الرجال ماعدا زوجهن ﷺ ، وهنا تضيع حكمة الإسلام من الزواج وعدله فى التشريع .

قال تعالى :

﴿ لَا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعۡدُ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجٖ وَلَوۡ أَعۡجَبَكَ حُسۡنُهُنَّ ﴾ (١)

(١) سورة الأحزاب - من الآية ٥٢ .

وقال تعالى :

﴿ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَن تَنكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِن بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمًا ﴾ (١).

وكان إمساك النبى لزوجاته وعدم الزيادة عليهن مكافأة لهن على موقفهن منه عندما خَيَّرَهُنَّ ، فاخترنه ﷺ كما يشير قوله تعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا * وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ (٢).

فآثَرْنَ الله ورسوله والدار الآخرة ، وعشن مع النبى ﷺ حياة تقشف وعبادة ، معينات على الحق ، راغبات فى الثواب ولما آثر نساء النبى البقاء معه ﷺ نزلت الآية الكريمة كالمكافأة لهن : ﴿ لَّا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِن بَعْدُ ﴾ (٣).

على أن الصحابة رضوان الله عليهم لم يجدوا فيما فعل الرسول ﷺ مخالفة لأمر الله الذى حدد الزوجات بأربع ، فقد عرفوا ماأمره الله به من إمساك زوجاته ، فدل على أن التحديد جاء بعد زواج هؤلاء جميعًا ، وأنه أمر بإمساكهن جميعًا دون الاقتصار على أربع كغيره لحُرمتهن على غيره .

فلو فارقهن لتعرضن للضياع والقيل والقال ، وحَاشَ أن يفعل ذلك مع الطيبات المؤمنات أمهات المؤمنين .

وهناك حكمة أخرى لتعدد زوجاته ﷺ هى :

أن زوجات الرسول ﷺ كن يقمن بتعليم نساء الصحابة الأحكام الشرعية الخاصة

---

(١) سورة الأحزاب ـ من الآية ٥٣ .

(٢) سورة الأحزاب ـ الآيتان ٢٨ ، ٢٩ .

(٣) سورة الأحزاب ـ من الآية ٥٢ .

بهن . فعن عائشة رضى الله عنها أن امرأة من الأنصار سألت النبى ﷺ عن كيفية غسلها من الحيض ، فقال :

«خذى فرصة من مسك فتطهرى بها ـ قطعة من القطن أو الصوف مطيبة بالمسك ـ فقالت المرأة السائلة : كيف أتطهر بها ؟

قال : تطهرى بها . قالت : كيف أتطهر بها ؟ قال : سبحان الله تطهرى . قالت عائشة : فاجتذبتُها إلىَّ فقلت : تتبعى أثر الدم .

واستحيا ﷺ وأعرض بوجهه حياءً أن يصرح لها بوضع القطنة المطيبة بالمسك فى المكان الذى يخرج منه دم الحيض إتمامًا للطهارة .

والذى استطاع إفهامها المراد هوعائشة رضى الله عنها .

وكان الرسول ﷺ أشد حياء من العذراء فى خدرها [1].

وجملة القول أن أمهات المؤمنين التسع اللاتى توفى عنهن الرسول ﷺ كن كلهن معلمات ومفتيات لنساء أمته ولرجاله مالم يعلمه عنه غيرهن من أحكام شرعية وآداب زوجية ، وحكم نبوية ، وكن قدوة صالحة فى الخير وعمل البر [2].

وبعد فتلك هى الضرورات التى قضت بالتعدد وما تنطوى عليه من إنسانية وحكمة عالية لتذيب كل الشكوك التى آثارها المضللون عن حياة الرسول ﷺ .

ثالثًا : أحداث جسام فى بيت النبوة :

١ـ حادث إيلاء الرسول لنسائه :

يقول الله تعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ ۖ تَبْتَغِى مَرْضَاتَ أَزْوَٰجِكَ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ * قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَٰنِكُمْ ۚ وَٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ * وَإِذْ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ

---

(١) رواه البخارى . .

(٢) أنت تسأل والإسلام يجيب للشيخ عبد اللطيف مشتهرى .

بَعْضِ أَزْوَاجِهِۦ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِۦ وَأَظْهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُۥ وَأَعْرَضَ عَنۢ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ قَالَتْ مَنْ أَنۢبَأَكَ هَٰذَا ۖ قَالَ نَبَّأَنِىَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ ۞ إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا ۖ وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ وَجِبْرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ ۞ عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَٰتٍ مُّؤْمِنَٰتٍ قَٰنِتَٰتٍ تَٰٓئِبَٰتٍ عَٰبِدَٰتٍ سَٰٓئِحَٰتٍ ثَيِّبَٰتٍ وَأَبْكَارًا ﴾ (١)

تبدأ سورة التحريم بهذا العتاب من الله سبحانه وتعالى لرسوله ﷺ فما يجوز أن يُحرِّمَ المؤمنُ على نفسه ما أحل الله له من متاع ، والرسول ﷺ لم يُحرم شيئًا بمعنى التحريم الشرعى ، وإنما كان قد قرر حرمان نفسه ، فجاء العتاب يوحى بأن ما جعله الله حلالاً فلا يجوزحرمان النفس منه عمدًا وقصدًا إرضاءً لأحد .

وفى سبب نزول هذه الآيات روايات متعددة . .

ففى رواية البخارى عن عائشة قالت : « كان النبى ﷺ يشرب عسلاً عند زينب بنت جحش ويمكث عندها ، فتواطأتُ أنا وحفصة على أيتنا دخل عليها فلتقلْ له : أكلت مغافير (٢) إنى أجد منك ريح مغافير . إنى أجد منك ريح مغافير . قال الرسول : لا ، ولكنى كنت أشرب عسلا عند زينب بنت جحش فلن أعود له ، وقد حَلَف . وقال : لا تخبرى بذلك أحدًا » .

فهذا هو ما حَرَّمه على نفسه ، وهو حلال له ﴿ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ ﴾ ؟

والتى حدثها رسول الله ﷺ هذا الحديث وأمرها بستره قالته لزميلتها المتواطئة معها ، فأطلع الله رسوله ﷺ على الأمر ، فعاد عليها فى هذا وذكر لها بعض ما دار بينها وبين زميلتها ، فدهشت هى وسألته :

---

(١) سورة التحريم ـ الآيات من ١ ـ ٥ .

(٢) المغافير : صمغ حلو الطعم ، كريه الرائحة .

﴿ مَنْ أَنبَأَكَ هَٰذَا ﴾ ؟ ولعله دار فى خَلَدها أن الأخرى هى التى نبأته ، ولكن الرسول أجابها : ﴿ نَبَّأَنِيَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴾ .

وفى رواية للنسائى من حديث أنس :

أن رسول الله ﷺ كان له أَمَةٌ يطؤها ، فلم تزل به عائشة وحفصة حتى حَرَّمَهَا فأنزل الله عز وجل : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَٰجِكَ ﴾ .

وفى رواية لابن جرير وابن إسحاق :

أن النبى ﷺ وطىء « مارية » أم ولده إبراهيم فى بيت حفصة بنت عمر ، وكانت قد خرجت لزيارة أبيها ، ولما رجعت وجدت النبى ﷺ مع جاريته مارية فى حجرتها فقالت للرسول : ما أظنك إلا أعرست بمارية على فراشى وفى حجرتى ، وغضبت ، وعَدَّتْها إهانة لها ، فوعدها رسول الله ﷺ بتحريم مارية وحلف بهذا وقال لها :

اكتُمِى ومارية علىَّ حرامٌ ، وكلفها كتمان السر ، فأخبرتْ بِه عائشة .

وقد كان من جراء هذا الحادث ـ سواء أكان بسبب العسل أو بسبب مارية ـ وما كشف عنه مِنْ تآمرٍ ومكايدات فى بيت رسول الله ﷺ أَنْ غَضِبَ ، فآلى من نسائه لا يقربهن شهرًا ، وهمَّ بتطليقهن من شدة موجدته عليهن ، حتى عاتبه الله عزوجل .

ثم نزلت هذه الآيات من صدر سورة التحريم وما ورد فيها من عتاب من الله سبحانه لرسوله ﷺ ، ودعوة الزوجتين المتواطِئَتَيْن فيه إلى التوبة :

﴿ إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا ﴾ .

وقد كان هذا الموقف فى حس رسول الله ﷺ وفى محيطه من الضخامة والعمق والتأثير أن أقسم ألاَّ يدخل على نسائه شهرًا من شدة موجدته عليهن ، وبنزول هذه الآيات هدأ غضبه ﷺ ، وعاد إلى نسائه .

ووقع حادث إيلاء النبى ﷺ من أزواجه يصوره الحديث الذى رواه الإمام أحمد فى مسنده عن ابن عباس رضى الله عنهما قال :

« سألتُ عمر بن الخطاب عن المرأتين من أزواج النبى ﷺ اللتين قال الله تعالى

فيهما : ﴿ إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا ﴾ .

فقال : هى عائشة وحفصة ، ثم أخذ يسوق الحديث قال :

« كنا معشر قريش قومًا نَغْلِبُ النساءَ فلما قَدِمْنَا المدينةوجَدْنَا قومًا تغلبُهم نساؤُهم ، فطفق نساؤنا يتعلَّمْنَ من نِسَائِهم ، فغضبتُ يومًا على امرأتِى ، فإذا هى تُرَاجِعُنِي ، فأنكرتُ أن تُراجِعَنِى فقالت : ما تُنكر أَنْ أُراجِعَك ، فوالله إنَّ أزواجَ رسول الله ﷺ ليُراجِعْنَهُ وتهجره إحداهن اليوم إلى الليل قال :

فانطلقتُ فدخلتُ على حفصة فقلت : أتُرَاجِعِينَ رسول الله ﷺ؟

قالت : نعم . قلت : وتهجره إحداكن اليوم إلى الليل ؟ قالت : نعم .

قلت : قد خاب من فعل ذلك منكن وخسر ، أفتأمن إحداكن أن يغضب الله عليها لغضب رسول الله فإذا هى قد هلكت ؟ لا تُراجعى رسول الله ﷺ ولا تسأليه شيئًا وسَلِينِى من مالى ما بَدَا لك ، ولا يَغُرَّنَّك أَنْ كانت جارَتُكِ هى أوْسَم (أجمل) وأحب إلى رسول الله ﷺ منكِ (يريد عائشة) .

وكان لى جار من الأنصار أتى عشاء فضَرَبَ بابِى ، ثم نَادَى ، فخرجت إليه ، فقال :

حَدَثَ أمر عظيم ، طَلَّقَ رسول الله ﷺ نساءه .

فقلت : قد خابت حفصة وخسرت ، قد كنتُ أظن هذا كائنًا ، حتى إذا صليت الصبح شددتُ عَلَىَّ ثيابى فدَخَلْتُ على حفصة وهى تبكى ، فقلت :

أطَلَّقَكُنَّ رسول الله ﷺ ؟ فقالت : لا أدرى ، هو هذا معتزل فى هذه المشربة ، فأتيت غلامًا أسود فقلت : استأذن لعمر فدخل الغلام ثم خرج إلى فقال : ذكرتك له فصمت . فانطلقت حتى أتيت المنبر ، فإذا عنده رهطٌ جلوسٌ يبكى بعضهم ، فجلست عنده قليلاً ثم غلبنى ما أجد ، فأتيت الغلام فقلت : استأذن لعمر . فدخل ثم خرج إلى فقال : ذكرتك له فصمت ، فخرجتُ فجلست إلى المنبر ، ثم غلبنى ما أجد فأتيت الغلام فقلت استأذن لعمر فدخل ثم خرج إلى فقال : ذكرتك له فصمت . فوليت مدبرًا فإذا الغلام يدعونى فقال ادخل قد أُذِنَ لك .

فدخلتُ فسلمتُ على رسول الله ﷺ ، فإذا هو متكىء على رمل (حَصِير) وقد أَثَّرَ فى جنبه ، فقلت : أطَلَّقْتَ يا رسول الله نِساءَك ؟

فرفع رأسه إلى وقال : (لا) فقلت : الله أكبر ، ولو رأيتنا يا رسول الله وكنا معشر قريش قومًا نغلب النساء ، فلما قدمنا المدينة وجدنا قومًا تغلبهم نساؤهم ، فطفق نساؤنا يتعلمن من نسائهم ، فغضبت علىَّ امرأتى يومًا ، فإذا هى تراجعنى ، فأنكرت أن تراجعنى ، فقالت :

ما تنكر أن أراجعك فوالله إنَّ أزواج رسول الله ﷺ ليراجعنه وتهجره إحداهن اليوم إلى الليل .

فقلت : قد خاب من فعل ذلك منكن وخَسِر ، أفتأمَنُ إحْدَاكُن أن يغضب الله عليها لغضب رسول الله فإذا هى قد هلكت ؟ ، فتبسم رسول الله ﷺ .

فقلت يا رسول الله قد دخلتُ على حفصة فقلت : لا يحزنك أَنْ كانت جارتك هى أوسم وأحب إلى رسول ﷺ منك . فتبسم رسول الله ﷺ أخرى .

فقلت : استأنَسَ رسولُ الله ، فجلستُ فرفعتُ رأسى فى البيت ، فوالله ما رأيت فى البيت شيئًا يرد البصر إلا هيبة مقامه .

فقلت : ادع الله يا رسول الله أن يُوَسِّعَ على أُمَّتِكَ ، فقد وسع على فارس والروم وهم لا يعبدون الله . فاستوى جالسًا وقال : « أفى شك أنت يا بن الخطاب ؟ أولئك قوم عُجِّلَتْ لهم طيباتهم فى الحياة الدنيا » فقلت : استغفر لى يا رسول الله » . ومضى شهر بأكمله والنبى فى عزلته .

وكان قد أقسم ألا يدخل على نسائه شهرًا من شدة موجدته عليهن ، حتى عاتبه الله عز وجل . وعندما عاد الرسول من معتزله قالت عائشة فى عتاب رقيق : بأبى أنت وأمى يا نبى الله ، قلت كلمة لم ألق بها بالاً فغضبت علىَّ أقسمت أن تهجرنا شهرًا ولم يمض منه غيرُ تسعٍ وعشرين . فأجاب الرسول إن شهرهن ذاك تسع وعشرون ليلة [1].

---

(١) رواه البخارى ومسلم والترمذى والنسائى .

من هذا ندرك عمق الحادث وأثره فى قلب رسول الله ﷺ .

وينزل القرآن الكريم مهدداً لنسائه ، مفصلا صفات النساء اللواتى يمكن أن يبدل الله بهن أزواجه لوطلقهن .

﴿ عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَٰتٍ مُّؤْمِنَٰتٍ قَٰنِتَٰتٍ تَٰٓئِبَٰتٍ عَٰبِدَٰتٍ سَٰٓئِحَٰتٍ ثَيِّبَٰتٍ وَأَبْكَارًا ﴾ (١).

وهذه الصفات التى يدعوهن الله إليها عن طريق الإيحاء والتلميح .

مسلمات : الإسلام الذى تدل عليه الطاعة والقيام بأوامر الدين .

مؤمنات : الإيمان الذى يعمر القلب ، وعنه ينبثق الإسلام حتى يصح ويتكامل .

قانتات : والقنوت هو الطاعة القلبية .

تائبات : والتوبة هى الندم على ما وقع من معصية والاتجاه إلى الطاعة .

عابدات : والعبادة هى أداة الاتصال بالله والتعبير عن العبودية له سبحانه .

سائحات : والسياحة هى التأمل والتدبر والتفكر فى إبداع الله ، والسياحة بالقلب فى ملكوته .

وإذا كانت هذه هى الصفات التى يدعو إليها الله عز وجل نساء النبى ﷺ، فهى أيضًا دعوة للنساء المؤمنات فى كل جيل .

تهديد لنساء النبى ﷺ كان له ما يقتضيه من تأثير مكايدتهن فى قلب رسول الله ﷺ، وما كان ليغضب من قليل .

وقد رضيت نفس النبى ﷺ بعد نزول هذه الآيات وخطاب ربه له ولأهل بيته ، واطمأن هذا البيت الكريم بعد هذه الزلزلة ، وعاد إليه هُدوءُهُ بتوجيه الله سبحانه (٢).

٢ـ حادث الإفك :

حادثُ الإفْكِ كَلَّفَ أطْهَرَ النفوس فى تاريخ البشرية كلها آلامًا لا تُطَاق ، وكلف

---

(١) سورة التحريم الآية الخامسة .

(٢) فى ظلال القرآن لسيد قطب .

الأمة المسلمة كلها تجربة من أشد التجارب فى تاريخها الطويل ، وعَلَّقَ قلبَ رسول الله ﷺ وقلب زوجته عائشة التى يحبها ، وقلب أبى بكر الصديق وزوجه ، وقلب صفوان ابن المُعَطَّل شهرًا كاملاً ، علقها بحبال الشك والقلق والألم الذى لا يُطاق .

وتروى عائشة رضى الله عنها قصة هذا الألم فقالت :

« كان رسول الله ﷺ إذا أراد سفرًا أَقْرَعَ بين نسائه ، فأيتهن خرج سهمها خرج بها معه ، وإنه أقرعَ بيننا فى غزوة « بنى المصطلق » [1]، فخرج سهمى ، فخرجتُ معه بعدما أنزل الله آية الحجاب ، وأنا أُحْمَلُ فى هودج وأنزل فيه ، فَسِرْنَا حتى إذا فرغ رسول الله ﷺ من غزوته تلك وقَفَلَ ودنونا من المدينة آذَنَ ليلة بالرحيل ، فقمتُ حين آذَنُوا بالرحيل حتى جاوزتُ الجيشَ ، فلما قضيتُ مِنْ شأنى أقبلتُ إلى الرَّحْلِ فلمستُ صدرى فإذا عقدٌ لى قد انقطع ، فرجعت فالتمسته ، فَحَبَسَنِى ابتغاؤه ، وأقبل الرهط الذين كانوا يرحلوننى فاحتملوا هودجى فرحلوه على بعيرى وهم يحسبون أنى فيه ، وكنتُ جاريةً حديثة السن لم يثقلنى اللحم ، فلم يستنكر القوم حين رفعوه خفة الهودج ، فحملوه ، فبعثوا الجمل وساروا ، فوجدت عقدى بعد ما استمر الجيش ، فجئتُ منزلهم وليس فيه أحد منهم ، فتيممت منزلى الذى كنت فيه ، وظننت أنهم سيفقدوننى فيرجعون إلىَّ ، فبينما أنا جالسة غلبتنى عيناى فنمت .

وكان صفوان بن المعطل السلمى قد أعْرَسَ وراء الجيش فأدلج ، فأصبح عند منزلى، فرأى سوادَ إنسانٍ نائم ، فأتانى فعرفنى حين رآنى ، وكان يرانى قبل الحجاب ، فاستيقظتُ باسترجاعه [2] حين عرفنى ، فخمرت [3] وجهى بجلبابى ، والله ما يكلمنى بكلمة ولاسمعت منه كلمة غير استرجاعه ، وهوى حتى أناخ راحلته ، فوطىء على يديها فركبتها ، فانطلق يقود بى الراحلة حتى أتينا الجيش بعد ما نزلوا معرسين [4].

قالت : فهلك فى شأنى مَنْ هَلَكَ ، وكان الذى تولى كِبْرَ الإثم عبدالله بن أُبَىٍّ بن

---

(١) فى السنة الخامسة الهجرية .

(٢) أى عندما قال : إنا لله وإنا إليه راجعون .

(٣) خمرتُ : غطيت .

(٤) نزلوا معرسين : نزلوا آخر الليل للراحة . ومنه قولهم : أَعْرَس المسافرُ ، أى : نزل للراحة آخر الليل .

سَلُول . فَقَدِمْنَا المدينة ، فاشتكيت بها [1] شهرًا والناس يُفيضون فى قول أصحاب الإفْكِ ولا أشعر ، يُرِيبُنى فى وَجَعِى أنى لا أرى من النبى ﷺ اللُّطْفَ الذى كنتُ أرىَ منه حين أشتكى ، إنما يدخل فيسلم ثم يقول :

كَيْفَ تِيكُمْ ؟ ثم ينصرف ، فذلك يُرِيبُنِي منه ، ولا أشعر بالشر حتى نقهت [2].

فخرجتُ أنا وأُم مِسْطَح قِبَلَ مُتَبَرَّزِنَا ، وكنا لا نخرج إلا ليلاً ، وذلك قبل أن نتخذ الكُنُف ، فأقبلتُ أنا وأم مسطح ـ وهى ابنة أبى رهم بن عبد المطلب بن عبد مناف ، وأمها بنت صخر بن عامر خالة أبى بكر الصديق رضى الله عنه ، وابنها مِسْطَح بن أثاثة بن عباد بن عبد المطلب ـ أقبلنا حين فرغنا من شأننا نمشى ، فعثرت أم مسطح فى مرطها ، فقالت : تَعِسَ مِسْطَح .

فقلت لها : بئسما قلتِ : أَتَسُبِّينَ رَجُلاً شهِدَ بدرًا ؟ فقالت : يا هَنْتَاه ، ألم تسمعى ما قال ؟ فقلْت : وما قال ؟ فأخبرتنى بقول أَهْلِ الإفك .

فازددتُ مَرَضًا إلى مرضى ، فلما رجعتُ إلى بيتى دخل رسول الله ﷺ . فقال : كيف تيكم ؟ قلتُ إِئْذَنْ لى أنْ آتى أبَوَىَّ ، وأنا حينئذٍ أريد أن أَسْتَيْقِنَ الخبر مِنَ قِبَلِهِمَا فأذِنَ لى .

فأتيتُ أَبَوَىَّ ، فقلتُ لأمى : يا أمتاه ، ماذا يتحدث الناس به ؟

فقالت : يا بُنية ، هَوِّنى على نَفْسِكِ الشأن ، فوالله لقلَّمَا كانت امرأة قط وضيئة عند رجل يحبها ولها ضرائر إلا أكْثَرْنَ عليها . فقلت : سبحان الله ! ولقد تحدث الناس بهذا؟ قالت : فبكيتُ تلك الليلة حتى أصبحت لا يرقأ لى دمع ولا أكتحل بنوم ثم أصبحت أبكى .

فدعا رسول الله ﷺ عَلِيَّ بن أبى طالب ، وأُسامة بن زيد رضى الله عنهما حين اسْتَلْبَثَ الوحىُ ، يستشيرهما فى فِرَاقِ أهله .

قالت : فأما أسامة فأشار عليه بما يعلم من براءة أهله ، وبالذى يعلم فى نفسه من

---

(١) أى : مرضتُ .

(٢) أى : تماثلتُ للشفاء .

الود لهم، فقال أسامة : هُمْ أهلك يا رسول الله ، ولا نعلم والله إلا خيرًا ، وأما علىٌّ بن أبى طالب فقال : يا رسول الله ، لم يُضَيِّقِ الله عليكَ ، والنساء سِوَاهَا كثير، وَسَلِ الجارية تخبرك ، فسألها النبى ﷺ : هَلْ رأيتِ فيها شيئًا يُرِيبُكِ ؟ فقالت : لا والذى بعَثَكَ بالحق نَبيًّا ما رأيْتُ منها أمرًا أعيبه عليها أكثر من أنها جارية حديثة السن ، تنامُ عن عجين أهلها فتأتى الشاة فتأكله .

قالت : فقام رسول الله ﷺ واستعذر من عبد الله بن أُبَىٍّ بن سَلُول وقال وهو على المنبر :

« مَنْ يَعذرُنِي مِنْ رَجُلٍ بَلَغَنى أذَاهُ فى أهْلِي ، فوالله ما علمتُ عَلَى أهْلِي إلا خيرًا ، ولقد ذكروا رجلاً ما علمتُ عليه إلا خيرًا ، وما كان يدخل على أهلى إلاَّ معى » .

قالت : فقام أُسَيْدُ بن حُضَيْر رضى الله عنه ، فقال : يا رسول الله ، أنا والله أَعْذِرُكَ منه إنْ كَانِ من الأوْس ضَرَبْنَا عُنقه ، وإن كان من إخواننا من الخزرج أمرتنا ففعلنا فيه أمرك . فقام سيد الخزرج سعد بن عبادة رضى الله عنه ، وكان رجلاً صالحًا ، ولكن أخذته الحَمِيَّةُ وقال لأسيد بن حضير : كَذَبْتَ لَعَمْر الله لا تقتله ولا تقدر على ذلك ، وثار الأوس والخزرج حتى هموا أن يقتتلوا ، ورسول الله ﷺ على المنبر ، فلم يزل يخفضهم حتى سكتوا .

وبكيت يومى ذلك وليلتى المقبلة ، فأصبح أبواى عندى وقد بكيتُ ليلتين ويومًا ، حتى أظن أن البكاء فالق كبدى ، وبينما نحن كذلك إذْ دخل علينا رسول الله ﷺ ثم جلس ، ولم يجلس عندى من يوم قِيلَ فِىَّ ما قِيل قبلها ، وقد مكث شهرًا لا يُوحَى إليه فى شأنى بشىء فتشهد حين جلس ثم قال :

أما بعد ، فإنه بلغنى عَنْكِ كذا وكذا ، فإنْ كُنْتِ بريئة فسيبرِّئُكِ الله تعالى ، وإنْ كنت أَلَمْتِ بذنب فاستغفرى الله تعالى وتوبى إليه ، فإن العبد إذا اعترف بذَنبه ثم تابَ، تابَ الله عليه . فلما قضى رسول الله ﷺ مقالته قلص دمعى [1] حتى ما أحس منه بقطرة .

---

(١) أى : جَفَّ .

فقلت لأبى : أَجِبْ عنى رسول الله ﷺ فيما قال .

قال : والله ما أدرى ما أقول لرسول الله ﷺ .

فقلت لأمى : أجيبى عنى رسول الله ﷺ فيما قال :

قالت والله ما أدرى ما أقول لرسول الله ﷺ .

قالت : فقلت وأنا جارية حديثة السن لا أقرأ كثيراً من القرآن :

إنى والله أعلم أنكم سمعتم حديثًا تحدَّثَ الناس به واستقر فى نفوسكم وصدقتم به ، فلئن قلتُ لكم إنى بريئة لا تُصَدِّقوننى بذلك ، ولئن اعترفتُ لكم بأمر والله يعلم أنى منه بريئة لتصدقننى ، فوالله ما أجد لى ولكم مَثَلاً إلا أبا يوسف إذ قال ﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴾(١).

ثم تحولتُ فاضطجعتُ على فراشى وأنا والله حينئذ أعلم أنى بريئة ، وأن الله تعالى مُبَرِّئى ببراءتى ، ولكن والله ما كنت أظن أن يُنزل الله تَعالَى فى شأنى وَحْيًا يُتْلَى ، وَلَشَأْنِى فى نفسى كانَ أَحْقَرَ من أن يتكلم الله تعالى فىَّ بأَمرٍ يُتْلَى ، ولكن كنتُ أرجو أن يرى رسول الله ﷺ فى النوم رؤيا يبرئنى الله تعالى بها . فوالله مارام مجلسه وخرج أحد من أهل البيت حتى أنزل الله تعالى على نبيه ﷺ ، فَسُرِّىَ عنه وهو يضحكُ ، فكانَ أَوَّل كلمة تكلم بها أن قال لى :

يا عائشةُ احمدى الله تعالى ، فإنه قد بَرَّأَكِ .

فقالت لى أمى : قُومِى إلى رسول الله ﷺ .

فقلت : والله لا أقوم إليه ولا أحمد إلا الله تعالى هو الذى أنزل براءتى ، فأنزل الله تعالى الآيات العشر من سورة النور :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ ۚ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم ۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ لِكُلِّ

---

(١) سورة يوسف ـ من الآية ١٨ .

﴿ ٱمْرِئٍ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ ۚ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۞ لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ ۞ لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ ۚ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا۟ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ۞ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِى مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۞ إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ ۞ وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ ۞ يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُوا۟ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۞ وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۞ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ۞ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ (١).

فلما أنزل الله تعالى هذا فى براءتى قال أبو بكر الصديق رضى الله عنه وكان يُنفق على مِسْطَح بن أثاثة لقرابته منه وفقره :

والله لا أنفق على مسطح شيئًا أبدًا بعد ما قال فى عائشة رضى الله عنها ، فأنزل الله تعالى : ﴿ وَلَا يَأْتَلِ أُو۟لُوا۟ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓا۟ أُو۟لِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلْيَعْفُوا۟ وَلْيَصْفَحُوٓا۟ ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (٢).

---

(١) سورة النور ـ الآيات من ١١ ـ ٢٠ .

(٢) سورة النور ـ الآية ٢٢ .

فقال أبوبكر رضى الله عنه : بَلَى والله إنِّى لأُحِبُّ أَنْ يغفر الله لى ، فَأَرْجَعَ إلى مِسطَح النفقة التى كان يُجْرِى عليه، وقال : والله لاأنزعها منه أبدًا .

قالت عائشة رضى اللهعنها : وكان رسول الله ﷺ سأل زينب بنت جحش عن أمرى فقال : يا زينب ما عَلِمْتِ وما رَأيتِ ؟ فقالت : يا رسول الله أَحْمِى سَمْعِى وبَصَرِى ، والله ما علمتُ عليها إلا خيرًا ، وهى التى كانت تسامينى من أزواج النبى ﷺ، فَعَصَمها الله تعالى بالوَرَع (١).

وهكذا عاش رسول اللهﷺ وأهل بيته، وعاش أبوبكر رضى الله عنه وأهل بيته ، وعاش صفوان بن المعطل السلمى ، وعاش المسلمون جميعًا هذا الشهر كله فى ظل تلك الآلام الهائلة ، وفى هذا الجو الخانق ، بسبب حديث الإفك الذى نزلت فيه تلك الآيات .

فها هى ذى عائشة الطيبة الطاهرة فى براءتها ووضاءة ضميرها تُرْمَى فى أعز ما تعتز به .

تُرْمَى فى شرفها ، وهى ابنة الصديق الناشئة فى العُشِّ الطاهر الرفيع .

وتُرْمَى فى أمانتها ، وهى زوجة محمد بن عبدالله ذروة بنى هاشم .

وترمى فى وفائها ، وهى الحبيبة المدللة القريبة من ذلك القلب الكبير .

ثم ترمى فى إيمانها ، وهى المسلمة الناشئة فى حجر الإسلام من أول يوم تفتحت عيناها فيه على الحياة ، وهى زوج رسول الله ﷺ .

وها هو ذا أبو بكر الصديق فى وقاره وحساسيته وطيب نفسه يلذعه الألم وهو يُرْمَى فى عِرْضِه فى ابنته ، زوجة محمد صاحبه الذى يحبه ويطمئن إليه ، ونبيه الذى يؤمن به ويصدق ، وإذا الألم يفيض على لسانه وهو الصابر المحتسب ، فيقول : والله ما رُمِينَا بهذا فى جاهلية أفنرضى به فى الإسلام ؟

وها هو ذا الرجل الطيب الطاهر المجاهد فى سبيل الله صفوان بن المعطل يُرْمَى

---

(٣) أخرجه البخارى ومسلم فى صحيحهما من حديث الزهرى عن عروة وغيره ، عما رواه ابن إسحاق عن الزهرى كذلك .

بخيانة نبيه فى زوجه ، فيرمى بذلك فى إسلامه وفى أمانته وفى شرفه وفى حميته وفى كل ما يعتز به، وهو من ذلك كله برىء ، وهو يُفَاجَأ بالاتهام الظالم فيقول : سبحان الله ، والله ما كشفتُ كَتِفَ أنثى قط .

وها هو ذا رسول الله ﷺ يُرْمَى فى بيته ، وفى مَنْ ؟ فى عائشة التى حَلَّتْ من قلبه فى مكان الابنة والزوجة والحبيبة .

وها هو ذا يرمى فى طهارة فراشه ، وهو الطاهر الذى تفيض منه الطهارة ، وها هو ذا يُرْمَى فى صيانة حرمته وهو القائم على الحرمات فى أمته .

يُرْمَى فى كل شىء حين يرمى فى عائشة ، يرمى فى عرضه وقلبه ويتحدث الناس بهذا كله فى المدينة شهرًا كاملا .

وعندما تصل الآلام إلى ذروتها على هذا النحو يتعطف عليه ربه فينزل القرآن الكريم ببراءة عائشة الصديقة الطاهرة ، وبراءة بيت النبوة الطيب الرفيع ، ويكشف المُنافِقِين الذين حاكوا هذا الإفك ، ويرسم الطريق المستقيم للجماعة المسلمة فى مواجهة مثل هذا الشأن العظيم ، قال تعالى :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ ﴾ [1] :

فهم ليسوا فردًا ولا أفرادًا ، إنما هم عُصبة المنافقين ، وعلى رأسهم عبدالله بن أُبَيٍّ بن سَلُول الذى أطلق معظم ذلك الإفك ، ثم خُدِعَ فيها المسلمون ، فخاض منهم مَنْ خَاضَ ، كَحَمْنَةَ بنت جحش ، وحَسَّان بن ثابت ، ومِسْطَح بن أثاثة ﴿ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ ﴾ . . وقال تعالى : ﴿ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ : [1]

أى : هو خيرٌ لكم إذْ يكشف عن الكائدين للإسلام فى شخص رسول الله ﷺ وأهل بيته ، وهو يكشف للجماعة المسلمة عن ضرورة تحريم القَذْف وأخذ القاذفين

---

(١) سورة النور ـ من الآية الحادية عشرة .

بالحد الذى فرضه الله ، وبَيَّنَ مدَى الأخطار التى تحيق بالجماعة المسلمة لو أطلقت فيها الألسنة تقذف المحصنات الغافلات المؤمنات .

ولقد روى أنه لمَّا مَرَّ صفوانُ بن المعطل بهودج أم المؤمنين وابن سلول فى ملإ من قومه قال : مَنْ هَذِهِ ؟ قالوا : عائشة رضى الله عنها ، فقال :

«والله ما نَجَتْ منه ولا نَجَا منها ـ امرأة نبيكم باتَتْ مع رَجُلٍ حتى أَصْبَحَتْ ثم جاء يقودها » . قولة خبيثة راح يذيعها عن طريق عصبة النفاق .

﴿ لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴾ [1]: نعم استبعدَ المؤمنون والمؤمناتُ سقوطَ امرأةِ نبيهم الطاهرة وأخيهم الصحابى المجاهد فى مثل هذه الحمأة [2] كذلك فعل أبو أيوب خالد بن زيد الأنصارى ، فقال : لأم أيوب : ألا ترين ما يقال ؟ قالت : لو كُنتَ بدلَ صفوان أكنتَ تظن بحُرمة رسول الله ﷺ ـ سوءًا ؟ قال : لا .

قالت : ولو كنتُ أنا بدل عائشة رضى الله عنها ما خُنْتُ رسول الله ﷺ ، فعائشة خيرٌ منى ، وصفوان خير منك [3].

وفى رواية لابن إسحاق أن أبا أيوب قالت له امرأته أم أيوب :

يا أبا أيوب ، أما تسمع ما يقول الناس فى عائشة رضى الله عنها ؟ قال : نعم، وذلك الكذب : أكنت فاعلة ذلك يا أم أيوب ؟ قالت : لا والله ما كنتُ لأفعله.

قال : فعائشة والله خير منكِ .

وبذلك نجد أن القرآن الكريم يفرض خطوتين لمواجهة مثل هذه الأمور .

الخطوة الأولى : خطوة عرض الأمر على القَلْب واستفتاء الضمير وهى خطوة الدليل الباطنى الوجدانى .

---

(١) سورة النور ـ الآية الثانية عشرة .

(٢) الحمأة : الطين الأسود المنتن .

(٣) من رواية الزَمخشرى فى تفسيره « الكشاف » .

الخطوة الثانية : خطوة التثبت بالبينة والدليل ، بطلب الدليل الخارجى والبرهان الواقعى :

﴿ لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ ۚ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا۟ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴾ (١).

ويتوعد القرآن الكريم الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات بلعنة الله ، وبعذاب الله فى الدنيا والآخرة ؛ لأنهم يعملون على زعزعة ثقة الجماعة المؤمنة بالخير والعفة والنظافة (٢).

---

(١) سورة النور ـ الآية الثالثة عشرة .

(٢) انظر :

١ ـ فى ظلال القرآن لسيد قطب .

٢ـ الكشاف للزمخشرى .

٣ ـ السيرة النبوية لابن إسحاق .

٤ ـ صحيح البخارى ومسلم .

obeikandl.com